آلهة العصر

باقي
للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: آلهة العصر

تأليف: أحمد خلف صالح

مراجعة لغوية: أحمد شعبان

التنسيق الداخلي: أسماء عطا

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

رقم الإيداع: 7546

تدمك:978/977-85484-6-4

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

رواية

آلهة العصر

تأليف

أحمد خلف صالح

إهداء

إلى روح أبي التي أتمنى من اللّه أن تهفو في جنات النعيم، وتنعم بالحياة مع النبيين، والشهداء والصالحين.

إلى أمي التي كانت لي سنداً أتكئ عليهِ وَقت سُقوطي، ونبراساً يُضيء لي عتمتي، والشمس التي تمدني بالطاقة لأكمل المسير.

إلى إخوتي عماد ونهى ومحمود، الذين كانوا عوناً لي فيما وصلت إليه في حياتي.

إلى روان أختي وابنتي وحبيبتي وصديقتي، التي أعانتني وشجعتني كثيراً حتى أمدتني بالأمل.

إلى زوجتي المستقبلية.. كنت أرغب بقوة أن تكوني بجواري في تلك اللحظة الفارقة في حياتي.

إلى أسماء كان لها تأثير بليغ في مسيرتي: دكتور مصطفى محمود.. دكتور راغب السرجاني.. مصطفى صادق الرافعي.. أحمد خالد مصطفى.. إريك آرثر بلير.

إلى أصدقاء ساندوني بقوة:

الحسين المحمدي.. الدكتور وليد عبد الغني..

الدكتور يوسف سراج.

"الكتاب صامت ما أسكته!

وبليغ ما أنطقه!

ومن لك بمُسامر لا يبتديك في حال شغلك،

ويدعوك في أوقات نشاطك،

ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه،

وإن شئت لزمك لزوم ظلك،

وكان منك مكان بعضك."

"الجاحظ"

الشريحة ١

شعر بتلك الشهقة التي تخرج من جوف شخص كاد أن يفارق الحياة، دقات قلبه تكاد تمزق قفصه الصدري من قوتها المفرطة، أنفاسه المتلاحقة تفوق سعة رئتيه المحدودة للهواء، عقله يصارع أحداثاً متضاربة، لا يستطيع تذكر شيء منها، فيجرفها بمشقة كفلاح يحرث أرضه في شمس يوليو الملتهبة، فقد السيطرة على جسده وأعضائه، بصورة تامة، وكأنه جسد لغير تلك الروح القابعة في أعماقه حتى فقد وعيه كلية.

بعد ستة أشهر...

تحركت أصابع يديه بصعوبة بالغة، فلفتت انتباه إحدى الممرضات.

- "لقد فاق من الغيبوبة، أحضري الدكتور سريعاً."

قالتها الممرضة بعد أن فقدت أعصابها، فأوقعت ما بيديها من محاليل وأدوية تحملها للمرضى.

طرقات أقدام سريعة وعالية على الأرض، في تباعد حتى اختفى صوتها، لتعود من جديد بكثرة، ولكن أبطأ سرعة.

شعر بأيادٍ كثيرة تتحسسه، مع وجود آلام، لكنه لم يستطع الصراخ، وكأنه ولد بدون أحبال صوتيه، سمعت أذناه كلاماً كثيراً، لم يستطع تمييز شيء منها سوى:

– لقد وُلِدْتَ من جديد أيها الشاب.

بعد شهرين...

اعتادت عيناه النور، بعد مشقة، وتيسرت حركة أصابعه، وكطفل بلغ الثانية، بدأ يستكشف المكان بعينيه، وبعد محاولات كثيفة، أدرك أنه في مستشفى، وقد رقد في غيبوبة بين الحياة والموت، منذ ما يقرب العام، ولكن ما لا يدركه أنه دخل في الغيبوبة نتيجة الانفجار الذى حدث في العاصمة الإنجليزية لندن، والذي مات فيه ما يقارب الثلاثة عشر شخصاً: أربعة رجال، وأربع نساء وخمسة أطفال.

بعد شهر...

تحوَّلت نظرات العطف التي رآها في أعينهم، إلى خوفٍ وهلع، مزج بكره يكاد يمزق قلبه، وهو لا يعرف له سبباً، في تلك الآونة بدأت أوصاله تنشط، فتحرك من على سريره رويداً، وقدماه شرعتا في السير، ولكن بعدم اتزان، فصاحبه عكاز، كان له رفيقاً، كما أتت إليه رسالة الطبيب، مطمئنة، إنها مسألة وقت، وسوف يعود إلى طبيعته كما كان.

تيقن الجميع من الفيديو المعروض من قِبل وزارة الداخلية في لندن، أنه هو من قام بتفجير القنبلة، ليس هو تحديداً، بل شريكته التي ماتت أثناء التفجير، ولم تهرب رُغم أن الفرصة كانت متاحة لها بشدة، لكنها ظلت

ثابتةً، كسفينة نوح، تنتظر الطوفان أن يحركها، وبالفعل لم تتحرك حتى استقرت رصاصة الشرطة في رأسها، فماتت في الحال، أما هو فقد هرب بعدما رأى شريكته فارقت الحياة، ولكن الشرطة وجدته بعد بضع ساعات مغشياً عليه في أحد الأزقة المهجورة.

لم يكن يعلم عن ذلك شيئاً، وهذا ما أدركه الجميع بعد تشخيص الطبيب، بأنه قد فَقَدَ الذاكرة لسبب غير معلوم، مما جعل بعض الاستعطاف ينبت في قلوب البعض تجاهه.

بعد أربعة أشهر...

خلال ما مر من أشهر لم يكن أحدٌ ليتحدث معه كثيراً؛ خوفاً مما لُصق به من اتهامات، تصل للسجن مدي الحياة، إلا في أمور علاجه، كالأدوية والمحاليل، ولم يخف البعض التمني بالشفاء العاجل له.

إلا هي، مريضة صغيرة السن والحجم، شقراء الشعر، رقيقة المشاعر، كانت من حين لآخر ترسل له بعض نظرات الرأفة، الممتزجة بالحزن على حاله، وهو المريض المُتهم، فاقد الذاكرة، أي أنه فاقد لكل شيء: ماضيه، وحاضره، ومُستقبله. فماضيه لا يتذكر منه شيئاً، وحاضره يوحي بأنه مجرم مطلوب للعدالة، ومستقبله الذي سينتهي خلف قضبان، صنعت من حديد غير قابل للتلف، كل ذلك جعل شعور التضامن يترعرع في قلبها العطوف.

ذات مرة، بعد أن أحضرت له الطعام، قالت له بصوت رقيق شديد الخفوت، ومشاعر مُرهفة:

- أعلم أنك بريء من كل ما يتهمونك به، قلبي أخبرني بذلك، وأنا أصدقه حين يصرح بما يحويه.

ثم تركته ورحلت في حياء، بعد أن أَحَسَّتْ ببعض المشاعر التي خرجت من قلبه لتطفو على عينيه، دون حديث بينهما.

بعد ساعة جاءته، وهي تحمل خلف ظهرها، حقيبة مدرسية، متوسطة الحجم، سوداء اللون، ممزقة من الجانب الأيسر، ووضعتها بين يديه، ثم قالت له بصوت يكاد يُسمع:

- هذه حقيبتك، لم يعلم بشأنها أحدٌ، فاحذر أن يراها غيرك. وخرجت مُسرعة على غير طبيعتها الهادئة.

شعر بلهفة شديدة، ورغبة مُلحة في فتحها، فقبضت يده عليها، وبتأنٍ فتح جزءًا منها، ثم أغلقها بسرعة، فور وصول صوت أقدام إلى أذنيه، وتذكر تحذيرها، فكان لا بد أن ينتظر قدوم المساء؛ حيث تقل الحركة، ويختفي العاملون داخل غرفهم.

لم يكن النوم ضيفاً مرغوباً فيه، فلم يذق ود زيارته، وحتى الانتظار، لم يرحمه هو الآخر، ولكن لم يكن لديه أية بدائل، حتى حَلَّ المساء، وانتهت صاحبة الحقيبة من وضع الدواء في المحاليل المُعلقة والمتصلة بجسده.

قالت له مُبتسمةً:

- أتمنى لك الشفاء العاجل.

ثم بهُت صوتها، وقالت بحزن غير مُصطنع.

- ولكن أيضاً لا أتمناه لك.

فَغَرَ فَاهُ من شدة التعجب والحيرة، من كلماتها الموجعة!!، وتساءل في صمت:

- كيف هذا الذي تقوله؟ الذي سمعته أذناه حقيقة أم خيال؟؟ أم هو آثار الأدوية عليه؟؟

أجابت بعد أن لمست مشاعر الحيرة والتعجب في عينيه:

- لقد سمعت الطبيب يتحدث إلى بعض مسئولي الأمن الموجودين خارج الغرفة، منذ قدومك إلى هنا قائلاً:

- لا يمكن تسليمه الآن؛ فإن علاجه لم يتم بعد، ما زال في احتياج لمزيد من الوقتِ حتى يُشفى، ويكون صالحاً للاستجواب، كما أنه فاقد الذاكرة لسبب غير معروف.

والآن بعد أن اقتربت من الشفاء الكامل، عدا ذاكرتك؛ فإن موعد تسليمك قد اقترب، وهذا هو ما يقتلني حُزناً، وقلقاً عليك. اقتحمت علامات الخجل وجهها، ثم خرجت بعد أن أفصحت عن بعض مشاعرها تجاهه، احمرت لها وجنتاها.

ظلَّ طول الليل، مؤرق الفكر، شارد الذهن، يشعر بأن الحياة تعاديه، تظلمه، تقاتله، ولكن ماذا فعل هو لكل هذا؟؟

أيُعقل أن يكون هو المجرم الذي فجر القنبلة، وقتل الأبرياء مع شريكته التي ماتت؟! ومنْ هي شريكته تلك التي لا ولن يعلم عنها شيئاً؟ ولكن كيف سار في طريق الإجرام هذا؟ ومنْ الذي أغواه؟ وما الدوافع التي أجبرته على فعل كل تلك الجرائم المُتهم فيها؟؟

أم هل يكون هو بريء لم يرتكب جُرماً؟ وأن كل ذلك تشابهٌ في الأسماء؟ ولكن ماذا عن الفيديو المُصور الذي يثبت لمن لا يرى ببصيرته قبل بصره، أنه هو الفاعل الأول في جريمته بعد مقتل شريكته؟

هتك التفكير عذرية عقله، بكل تلك الأسئلة، دون أن يمنحه ولو جواباً واحداً، يريحه، ويزيل عنه أفكاره السوداوية، سواء أكان بريئاً أو حتى مُجرماً.

خرجت نظراته من نافذة الغرفة لتقع على سماء قاتمة السواد، عدا نجم واحد، يقتل سوادها، ويعريها منه، فيجعل منها لوحة بديعة هادئة، بعيدة عن الزخرفة الكاذبة، حياته تماماً غلَّفها السواد من كل جوانبها، ليصبح فيها كالأعمى، لا يرى فيها نجماً واحداً، يبث الحياة فيها، وفجأة انتفض من مكانه حين تذكر الحقيبة، فتمني من أبعد نقطة في أعماق قلبه الجريح، أن تكون هي النجمة التي تزين سواد حياته بجمال ضيائها البراق.

وبلهفة أخرجها من أسفل وسادته، وأخذ يقلب فيها كالمصروع الذى فَقَدَ السيطرة على أعضائه، وبدأ يلوح بها في الهواء، ليعاركه، فلم تمنحه سوى بعض الأوراق، لا يتذكر عنها شيئاً، سار عليها بعينه، فلم تمنحه مراده، يشعر بثقل الحقيبة، فأعاد البحث من جديد، حتى تبخَّر أمله سريعاً، فألقاها فوق الأرض، لتلتقط أذناه دبيباً حفيفاً، خرج حينما ارتطمت بأرضية الغرفة، قبض على الحقيبة في تحد ممزوج بالإصرار، وأخذ يتفحصها بقوة، حتى وصل إلى أسفلها، فأحست يداه بجسم ثقيل، وضع يده بداخلها، ومزق قاعدتها، حتى وجد دفتراً صغيراً بني اللون، وبشغفٍ قاتلٍ، أجلسه على الأرض دون وعي، فتح الدفتر، وأخذ يقرأ ويقرأ ويقرأ... ومع كل سطر يمر تزداد عيناه احمراراً، ودهشةً واتساعاً.

أغلق الدفتر بعد دقائق أكل فيها عدداً من صفحاته بعينيه، ثم جلس فوق سريره، وضغط على زرٍ أحمر وُضع بجواره لطلب المساعدة حين يريدها.

أتته الممرضة مُسرعة، والهلع يبرز من عينيها البنيتين ثم قالت بلهفة:

- ما بكَ؟ أهناك مكروه قد حدث لك؟

أجلسها برفق، ثم قال لها بصوت هادئ تنبعث منه ثقة غريبة:

- أريد أن أهرب من هذا المكان.

المدير ١

استيقظ من نومه كالعادة باكراً، تناول فطوره في نهم شديد، وكأنه طفل صغير فطمته أمه، استساغ طعامه في تلك اللحظة، تذوقه لأول مرة، في رشاقة بالغة ارتدى بذته السوداء، ورابطة العنق الحمراء، وحذاءه اللامع، ليسير باتزان شديدٍ تجاه بوابة قصره الملطخة بالذهب على جوانبها، وما إن وصل إلى سيارته الفارهة، حتى فُتح له الباب ليركبها بتأنٍ (بالغ كثيراً في إظهاره)، كمَلِكٍ في القرون الوسطى، يتبختر بزهوٍ على سجادة حمراء، وسط حشود من شعبه المُستعبد، في خنوعٍ ورضا تامٍ.

دقائق معدودة كانت كفيلة ليكون أمام شركته، التي تعد من أقوى الشركات في العصر الحديث، والتي كتبت الجرائد عنها يوماً: "شركة بحجم قارة"، ليس لها مجال محدد تعمل فيه، بل إن شئت قُلْ إنها لم تترك مجالاً إلا وشاركت فيه بمُنتج أو اثنين، أو أكثر في كل المجالات: الطب، والهندسة، والكيمياء، والبناء. لذلك كان من اليسير أن تجد اسمها في معظم بلاد العالم، حسب حاجة البلد، وبما أن إفريقيا من أكثر مناطق العالم، التي تعاني انتشار الحروب، إما لدكتاتورية الحكومات، وإما لجهل الشعوب التي تسير خلف مرتزقة، وما ينتج عنها من حروب أهلية، ومجاعات- فإنك تجدها متمثلة في مجالي البناء والأغذية، أما في مجال السيارات، فهي تحتل

الصين واليابان بشركاتها، وغيرها من الدول التي لم تترك شبراً فيها، ناهيك عن عملياتها لتصنيع وبيع الأسلحة لكبرى الدول سراً، والغريب أنها تحتل تلك البلد بسواعد أبنائها.

نزل من السيارة والابتسامة المُشرقة تتربع على وجهه ولِمَ لا؟ وهو الآن المسئول الأول عن أكبر وأهم شركة على مستوى العالم؟؟!!، شركة تتحكم في اقتصاد عشرات الدول، فإذا تعسرت هذه الشركة تعسرت معها هذه الدول، لذا ومن الطبيعي أن تجد لها حلفاء يقفون معها بكل قوتهم، وأعداء يتربصون بها ويحاربونها بشتى الطرق، كي تسقط، ومن ثم تسقط الدول المؤيدة إياها.

دلف من باب الشركة الكبير، المصنوع من الزجاج الكاتم للصوت، والمضاد للرصاص، الأيادي تُرسل له التحيات من هنا وهناك تملقاً، مُمنِّية نفسها بمكانة مهمة بجواره، ومع كل يدٍ تُرفع، كان الانتعاش يتملكه، والغرور يعتليه. فهكذا تُصنع الطواغيت، ولكن هل هو طاغوت؟

وجد أمام باب مكتبه الفخم، حين وصل، عدداً من كبار مسئولي الشركة، ينتظرونه ليُهنئونه على المنصب الجديد، ويطلعونه على بعض الأمور المهمة في الشركة، أشار إليهم أن اخفضوا أصواتكم، فعمَّ الصمت المكان، في لحظة

استعداد لسماع صوت المدير الجديد، وكأنه مطرب يبدأ حفله الغنائي، فتنهنه ثم قال:

- من الآن لا مجال للتهنئة، والكلمات المزيفة، ولكن هناك مكان للعمل، العمل وفقط، ثم أردف:

- اجتماع مجلس الإدارة بعد نصف ساعة من الآن.

أنهى كلمته، ثم دخل مكتبه في سرعة، حتى يقطع عليهم نفاقهم المُبتذل، وتسولهم الصريح، الذي ينكرونه على من هم أقل منهم منزلة.

جلس على كرسيه الناعم، وأسند ظهره، ومال للوراء برأسه الأملس، وكأنه يزيح بعض الأفكار الثقيلة والهموم التي اعتلته طويلاً، ثم أخذ يسترجع كل البذور التي وضعها في أرض حياته، لتأتي إليه بتلك الثمرة التي جالت وصالت كثيراً في أحلامه، ولم ييأس يوماً حتى أضحت حقيقة يلمسها في عيون المنافقين، ونبرات المتسلقين.

موسيقى هادئة خرجت من هاتفه المحمول، لتداعب قلبه قبل أذنيه، فخُلقتْ من العدم ابتسامة انتصار ماكرة، لعلمه بهوية المُتصل، أمسك الهاتف، وقام بالرد في هدوء رهيب، قائلاً بابتسامة خبيثة:

- كنت أنتظر هذه المُكالمة على أحَرِّ من الجمر سيدي.

الأندلس ١

ما إن استقرتْ أحوال الأندلس، تحت حكم صقر قريش عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢هـ)، حتى بدأ الاهتمام بالعلوم والثقافة والتربية، يأخذ مجراه بصورة متنامية، ففي عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت٢٧٣هـ)، بدأ المؤرخون يُشيرون إلى المكتبة الأموية، كواحدة من أشهر مكتبات قرطبة، واشتهر عبد الرحمن الناصر (ت٣٥٠هـ) بحبه الشديد للكتب، وشغفه بها، لإدراكه العميق بمكنون أهميتها الكبيرة في حياة المسلمين، خاصة النشء الصغير، الذي إن لم تشغله بالجد منذ الصغر، فسيشغله الهزل عند الكبر، وتُملأ حياته بأمور لن تجلب له وللأمة، سوى حب الشهوات والملذات، التي إن سيق إليها أحد إلا كان هلاكه على يديها.

كان لعبد الرحمن الناصر طفلان صغيران هما: (الحكم ومحمد)، اهتم بهما أشد الاهتمام، وبالغ في تربيتهما تربية حسنة، تحت إشراف علماء أجلَّاء، حتى إن أحد العاملين المقربين في قصره، ذات يومٍ أتى إليه، وقال له في تبجيل:

- يا أمير المؤمنين إن ولداك مازالا صغيرينً، ولن يعيا شيئاً من كل تلك العلوم التي تدسُّها في عقليهما، فلا تشق عليهما، ودعهما يعيشان طفولتيهما البريئة، يلعبان ويجريان هنا وهناك.

غضب عبد الرحمن غضباً شديداً، ولكنه قال في هدوء مصطنع:

- وهل أنت عندما حفظت القرآن في سن صغيرة، كنت تعي منه شيئاً؟

أجاب الرجل:

- لا.

قال الناصر:

- ولِمَ حفظته؟

قال الرجل:

- والدي- رحمه الله- هو من قام بذلك.

قال الناصر:

- وأين أنت الآن من القرآن؟

قال الرجل:

- أعِي كل حرف فيه، وأفهم كل معانيه وأشرحها لكل الناس.

قال الناصر:

- إن عقل الطفل مثل سلة فارغة تماماً، تملؤها بما تريد من الفاكهة، وأنت ستتذوق طعم ما وضعت في تلك السلة من فاكهة، سواء كانت طازجة أو فاسدة، إن ذلك الطفل الصغير، كما قلت أنت، لا يعرف شيئاً

بعد، ولكن يدخل العلم عقله ويحفظه منذ صغره في سهولة ويسر، وحين يكبر، لن يجد الوقت الكافي، كي يتفرغ لحفظ هذه العلوم، يحفظ العلم، وهو صغير، وحين يكبر يأتي وقت الفهم، فيبتدر بالبحث عن معاني تلك الكلمات المحفورة في عقله، التي لا يعلم لها معناً، فيفهمها حتى تدخل قلبه، ويعيش بها ولها، أما وإن تركته سيجد من يملأ عقله بسفاسف الأمور، وأحقرها، وسيكون من الصعب إخراجها من عقله في كبره.

تفهم الرجل المقصود من كلمات الناصر، كما أعجب بطريقة تفكيره في الأمور بعمق.

استمر الناصر مع ولديه على النهج ذاته، فكان يعطي لكلٍ منهما كتاباً يقرأه فيتسابقان في القراءة، وكل منهما يأمل أن ينهي كتابه قبل أخيه، لينال رضا والده، فيمنَّ عليه بكتاب آخر، ومعلومات أخرى، يحاول بها الاستعلاء على أخيه، ويسبقه في المعرفة، حتى إنهما حين لم يتعديا العاشرة من عمرهما أصبحت مكتبة والدهما لا تشبع نهمهما، وتروي رغبتهما الجامحة في القراءة، التي أضحت لهما كالماء يشربانه، والهواء يتنفسانه.

بمرور الأيام والسنين، كبر الولدان، وكبر معهما الاهتمام بالكتب والعلم، ليس على غرار الأطفال في زماننا، الذين يشبُّون على حب الموسيقى والأفلام، فتنمو في أذهانهم صورة المغنين، والمغنيات، والممثلين والممثلات،

كقدوة يُحتذى بها، وهدف يتطلعون أن يحصلوا عليه يوماً، ومن ثم سعى كل واحد منهما لتكوين مكتبته الخاصة به، فتفننا في تزيينها بكل أصناف ألوان المؤلفات من الكتب، وتنافسا فيمن سيقرأ كتباً أكثر من الآخر.

بل الأدهى من ذلك، كان السبق والفوز لمن يحضر كتاباً، لم يستطع أن يحصل عليه أخوه، حتى إن الحكم طلب من أبي فرج الأصفهاني، نسخة مكتوبة من أشهر كتبه (كتاب الأغاني) قبل أن ينشرها في بغداد، واشتراها بألف دينار.

ولم يكتف الأَخَوَان بالانكفاء على الكتب وقراءتها، بل إن الأمر، تطور معهما بشدة، فقاما بفعل أشياء تعجَّب منها الخليفة، وأخذ ينظر إليهما باندهاش، والدموع تنهمر فرحاً من عينيه.

السفينة ١

فر مسرعاً من مكانه من شدة الهلع، فتعطل عقله، ولم يدرِ إلى أين يذهب؟ أو لمن يلجأ؟ القنابل تحيط به من كل مكان، ويدوّي صوتها المُريع، ويصدع من جميع الجهات، حتى إنك لا تدرك من أين ستأتي القنبلة التالية؟؟

الأشلاء تحاصره، ليتخيل للرائي أنه لا يوجد حي يتنفس في تلك البقعة، لكثرة الدماء، والجثث المنتشرة على الأرض، والمتطايرة في السماء، كتطاير الصحف يوم الحشر!!.

كانت هجمة جيش الاحتلال هذه المرة أقوى مما سبق على ما يبدو، قُتل فيها المئات من النساء والشيوخ والأطفال، هُدمت عشرات البيوت، بمن فيها أحياءً، غير الآلاف الذين سيبيتون مشردين في ضواحي المدن وطرقاتها، ابتداءً من ليلتنا الشنعاء.

تلك الليلة مات، ودُفن فيها كثير من المشاعر، التي يكنُّها إياد لعائلته الصغيرة، أب وأم وأخ، كان الدفء يعشش في حياتهم، والحب والحنان يغلفان أفعالهم، لم تكن أسرةً غنيةً بالمال، لكن غناها الحقيقي، يكمُن في المشاعر، التي يكنُّها كل منهم بين جنابته لباقي الأسرة، الأسرة التي لم تيأس يوماً، فواجهت الحياة وقسوتها بكل صنوف الصبر، وبجميع أسلحة التحمل، الأسرة التي لم يتبق منها غير إياد الشاب ذي العشرين عاماً.

جعلته هذه القنابل يتيماً لقيطاً، مثل آلاف غيره، لا يعلم كيف سيواجه تلك الحياة؟؟ أو أين سيكون مأواه؟.

استفاق من شروده، مُمَنِّياً نفسه بالاستفاقة من تلك الأفكار القاتمة، فيجد نفسه مرتمياً في حضن أمه أو لاعباً مع أخيه أو حتى، منتظراً عودة أبيه من العمل، ليَهُبَّ فرحاً، فيتعلق برقبته، لكنه لم يجد إلا الدمار من حوله، والتشرد منتصباً أمام عينيه.

رفع رأسه والدموع تسيل من بين جفنيه، مثل فيضان فَقَدَ صوابه، فعاث في الأرض فساداً وتخريباً، الرؤية باهتة، ضعيفة، لكثرة الضباب والسُحب المتجمعة حول عينيه، بدأت الدموع تجف، فاتضحت الرؤية بعدها، وجد نفسه على ظهر تلك السفينة المُكتظة بأُناس كُثر، لا يوجد بها متنفس لقدم طفلٍ صغيرٍ.

شرع في قراءة وجوه رفقاء السفينة، الذين اتفقوا جميعاً، بدون اتفاق على هروبهم من بلادهم، بهذه الطريقة، التي إن نجوا منها، فسيعيشون لقطاء ومشردين في بلادٍ غير بلادهم، أو قد تنتهي حياتهم في لحظة، ولن يعلم بهم أحد، إلا وهم جثث تلفظهم الأمواج على الشواطئ، والباقي سيكون مثل قطعة لحم حُشِرَتْ بين ضروس وأسنان الأسماك والقروش، بعد وجبة غداء خفيفة، أو تأتي عاصفة من هنا أو هناك، فتهشم سفينتهم، منتهية الصلاحية،

فيسقطون في المحيط، لتمتلئ بطونهم بالماء، وتُسد رئتهم، فلا يستطيعون التنفس، لتنتفخ على آخرها، ثم تنفجر دون صوت، فيموتون، وعلى وجوههم أقسى علامات الألم، أسوأ ما في ذلك، أنهم فضلوا هذه الحالات على العيش في بلادهم، الظلم المستشري والظروف القاسية (الذي فاحت رائحته، حتى تستطيع أنفك وعينك وعقلك، أن تلتقطه من أبعد بقعة على وجه الأرض)، هي ما دفعتهم وأجبرتهم، رغم أنوفهم على حمل أرواحهم الحالمة، على متن هذه السفينة المنتهية الصلاحية.

أخذ يتأمل الوجوه مرات ومرات، فتعجب كثيراً، لشدة اختلافها وتنوعها، فهناك الأبيض والأسمر والقمحي والطويل والقصير، بل يوجد عدد من الفتيات، الكل يقبع في عالمه الخاص.

دقق إياد النظر، فوجد مجموعة صغيرة من الأفراد، تتراقص في يدي كل واحد منهم زجاجات من الخمر، في محاولة للهروب من ألم الواقع، ومجموعة أخرى، أفرادها يلتفون في دائرة، تتوسطهم إحدى الفتيات، تتمايل راقصة، وتصفيقهم يملأ أرجاء المكان، وتحت أقدامهم يوجد أشخاص كالموتى، لكنهم نيامٌ، النحافة ابتلعت أجسادهم بسلاسة، ولا يشعرون بشيء مما يحدث حولهم، كما أنه لن يشعر بهم إلا حين تتعفن أجسادهم، فيلقونهم في المياه، وآخرون على حالته وشاكلته، لا يتكلمون ولا ينطقون،

عيونهم مُفتحة، لكن قلوبهم تعتصر ألماً، لتُنْتِجُ أوجهاً، لا حياة فيها، وأجساداً سُحبت منها الأرواح، لتعيش في قبورها قبل أن تُدفن، لتبقى أجساد تتمايل وتتراقص، بلا أهداف، كآلات عفا عليها الزمن، لتباع في أسواق الخردة، بلا مقابل، ولا تجد من يحملها.

شعر إياد بشجار شديد يقتحم ذاكرته، لا يعلم متى؟ وأين حدث؟ ولا يعلم حتى مَنْ أطرافه؟، حتى أحس بجسده الهزيل يهتز، فاستفاق من شروده، ليجد عراكاً قد نشب حوله، لا يعلم له سبباً، فتيقن أنه لم يكن حلماً، بل كان حقيقة، دخلت إلى عقله الباطن حتى شعر بأنه يحلم.

بدا على الجميع الاستمتاع بما يدور، وكأنهم وجدوا بعض السلوى برؤية دماء بعضهم البعض، تسيل على الأخشاب، التي كانت يوماً ما شجرة، يستظل الناس بظلها وينتفعون بثمارها. كان التصفيق يسير بشكل متناغم، حتى تظن أنك في حفل موسيقي، ثم تكوَّنت من العدم حلبة بشرية للمصارعة.

المدير ٢

نعم يا سيدي كل شيء على ما يرام، لا تقلق، فالقلق لم يخلق لأمثالك، كما أنه لم يُخلق أحدٌ لهذه الشركة غيري، ومجهودي خير دليل، وأنت تدرك هذا جيداً.

جاء صوت أجش من الهاتف قائلاً:

- أنا أعلم مدى قدراتك وإمكانياتك الفذة، وكل ما قدمت وفعلت دلائل عظيمة، أنك في هذه الفترة الأكفأ لكل هذه المهام، ولتعلم جيداً أن الوصول إلى القمة ليس بأمر شاق، ولكن المحافظة عليها هو المشقة الحقيقية.

رد بصوت متردد، في محاولة لرسم الثقة على نبرته؛ حيث إن فشله يعني ضياع جهد سنين مضت، بل قد يعني انتهاء صلاحية حياته من على وجه الأرض. فهؤلاء لا توجد في قواميس معاملاتهم كلمة خطأ، ومحوا كلمة "آسف"، وأبادوا جملة "أريد فرصة أخرى" من كل قواميس الكون:

- بالفعل سيدي، فالأيام المُقبلة ستثمر أكبر دليل لاستحقاقي المنصب الكبير.

أغلق الهاتف، وبدأ في القيام بتمارين التنفس، حتى يعود لطبيعته مرة أخرى، ثم سكن، وكأنه يحاول إخماد نار الخوف في عقله، تلك النار التي تأججت، وانتشر لهيب دخانها، منذ لحظات في أعماق نفسه.

أمسك (اللاب توب) الخاص به، وقام بتشغيله، ظهر سطح المكتب بملفاته المختلفة، حرَّك (الماوس) تجاه مكان يعرفه جيداً، مكانٍ يشغل باله، منذ فترة طويلة، حتى أصبح شغله الشاغل وهمه الذي يعتلي فكره ليل نهار، في يقظته وأحلامه.

ملف أصفر مشوب بالبياض، كُتب أسفلة (برنامج السفلة)، ضغط عليه مرتين، حتى فُتح، لتظهر له صفحة سوداء غريبة، الكرة الأرضية تظهر في الخلفية بشكل باهت، صورة مليئة بحروف وأرقام إنجليزية، تتغير وتتبدل من مكان لآخر، بعضها سريع، والآخر بطيء، وهناك أرقام وحروف ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، إذا نظر إليها غيره، فلن يفهم شيئاً، لكنه يفهم كل شيء، ويدرك معنى ومكان وشكل كل رقم، لكن عقله تخطى كل الأرقام، وعينيه أهملتا كل حرف، حتى تركزت على حرف مصحوب برقم بخطٍ كبيرٍ **J**) .25)

ما جعل تفكيره يُشل، وعقله يكاد يُصاب بالجنون، أن كل الحروف، والأرقام، تتحرك في ثبات، ولا تختفي مهما اختلفت سرعتها، إلا هذا الرمز

كانت تحركاته في منتهى الغرابة، غير طبيعية نهائياً، الغريب فيها أنه يظهر في مكان محدد وبعد لحظات يظهر في مكان آخر، سرعته تزداد وتنقص، ثم يختفي من على الصورة، كأنه لم يكن موجوداً من الأساس، وبعد مُدة يظهر من جديد في أكثر من مكان، ويعاود الكَرَّة، ولكن بطريقة مغايرة، لما سبق، فلا يمكن تتبعه.

دلف إلى المكتب الكبير شاب في أواخر الثلاثينيات، أكل الوهن جسده، وابتلع الضعف روحه، وجهه أشبه إلى حدٍ كبيرٍ بورقةٍ وُضعت بين يدي طفلٍ في الثالثة من عمره، وبيده أقلام بألوان شتي، رسم بها جميعاً خطوطاً كثيرة متشابكة، لتظهر وكأنها خريطة، وُضِعَتْ بها كل تضاريس العالم، من جبال، وهضاب، وسهول.

قَدِمَ الشاب إليه ببطء، مصطحباً معه عرجاً، لا يخفى على أحد، يحمل بين يديه فنجاناً صغيراً من القهوة، دون أن يحرك شفتيه، وضعه أمامه، ثم انصرف، ولكن المدير استوقفه قائلاً بسخريةٍ لاذعةٍ:

- هل أنت سعيد في عملك الجديد يا سعيد؟

استكمل طريقه، دون أدنى اهتمام، ولكن صوته الجهوري استوقفه من جديد، فتصلب مكانه دون أن يهمس.

- لم أحصل منك على إجابة، وسأُعيد عليك سؤالي مرةً أخرى، وبحدة يعلم مغزاها قال:

- هل أنت سعيد في عملك الجديد يا سعيد؟

عادت ذاكرته للوراء برهة من الزمن، فأحرقتها ذكريات مؤلمة، جعلت الشاب يرد في انكسار وقهر، وما أقوى القهر عند الرجال فقال:

- نعم سيدي.

قال المدير والضحكة تملأ جنبات المكتب، بعد أن روي صوت الشاب المكسور أرض غروره، ورفع راية انتصاره:

وفي الأيام القديمة سيُعجبُك العمل هنا كثيرًا، فلا تتعجل، وأشار له بأن ينصرف من أمامه، وانصرف الشاب بدموع تدمر أعماقه، وانكسار يبدد أوصاله.

الياسمين ١

اسمي الياسمين، سني ٢٥ عاماً، ولدت في جنوب إفريقيا، كانت حياتنا طبيعية جداً، أطفال نعيش طفولتنا بجمالها وبهجتها، وأقصى ما يواجهنا ويعكر صفو حياتنا، هو الواجب المدرسي، والاستيقاظ باكراً للدراسة، لم تفارقنا الضحكة لحظة، حتى جاء ذلك اليوم الذي فارقنا فيه كل شيء: الأب، والأم، والحب، والضحك. والابتسام لم يعرف لقلوبنا طريقاً، كعادة الأيام التي لا تجلب المصائب لنا فُرادى.

في ذلك اليوم خرجنا مع والدنا إلى الغابة، لنحضر بعض الطعام الذي سيكون غداءنا، استعددنا للذهاب والفرحة تنبع من قلوبنا، لتنشر أشعتها على وجوهنا الطفولية النضرة، فترسم بهجة، يعشقها والدانا، وقبل أن نتوجه إلى طريقنا، هجم اللصوص على القرية، بكاملها، فقتلوا الرجال أمام أعين زوجاتهم وأطفالهم.

رأيت دماء أبي الدافئة، تسيل فوق الأرض، أسفل قدمي، وهو يدافع عن أمي، محاولاً تخليصها من ذلك الوحش، وهو يهتك عرضها، فكانت صرخاتها تشج قلوبنا، خاصة ذلك الأب المسكين المكلوم، الذي لا حيلة له بأيدٍ مُقيدة، ودماء طاهرة تتشربها الأرض من تحته.

شرعت الصرخات تزداد، وتجوب المكان، ليست صرخات أمي فقط، بل كل نساء قريتنا، أما الرجال فلم يمر اليوم إلا وهم وجبة شهية لدود الأرض وثعابينها.

اختطفني رجل طاعن في السن، يظهر الشيب في كل أجزاء جسده المتغول والمترهل، وجهه البشع، ورائحته الكريهة لاتزال عالقة في أنفي، أعصابي تتشنج كلما لامستْ ذكراه رأسي، فأحاول جاهدة طردها، ولكن بلا جدوى، فلا تتركني إلا وأنا فاقدة الوعي.

بعد أن اختطفني ذلك الخنزير ذو الوجه الكريه، حملني على كتفيه، وكأنه وجد بغيته ومراده، دخل أحد البيوت التي لم يصبها الدمار، ومزق ثيابي التي تخضبت بلون الدماء الممزوجة بآهات وآلام أُناس كانوا أحياء منذ دقائق، بعد أن كانت بيضاء.

اعتلى جسدي الصغير ذا التسع سنوات، لم أعرف يومها ما الذي كان يفعله بذلك الجسد الهزيل؟

ولكني عندما تقدمت في السن، أدركت أن كل شيء يكمن في تلك الشهوة الحيوانية، التي ما إن يفقد الإنسان السيطرة عليها، حتى يصبح حيواناً ناطقاً، وهم كثيرُ في هذه الآونة، يتزايدون ويتكاثرون، مثل الأرانب،

فلن تذهب لمكانٍ، إلا وتجد تلك الشهوة الحيوانية تبرز من أعينهم، لتغتصب جزءاً من جسدك وتفضحهم على رؤوس الأشهاد.

أنهى الوحش حاجته سريعاً، والألم يغزو كل جسدي، فحملني بيديه الغليظتين، ثم قذفني في مؤخرة عربة صغيرة، ليرتطم جسدي بباقي فتيات القرية، اللاتي كنَّت أنا وهنَّ سوياً نلعب، وسوياً نضحك، وسوياً نمرح.

لم يكن حالي بأفضل منهن، ومع ذلك كنت أحاول تهدئتهن، والترويح عنهن، ولكني انهرت بشدة حين لَحَتْ عيناي أختي كريمة فاقدة الوعي أمامي، اخترقت صرخاتي أذن الجميع، فخافت الفتيات، وصرخن لصراخي، حتى هجم علينا أحدهم بعصا غليظة، فانخرست الأصوات بنزولها على أجسادنا الهزيلة، إلا مِنْ أنَّاتٍ خفيفةٍ تمزق الأفئدة.

حملت رأس أختي على يدي، ووضعتها برفق على فخذي، فالآن هي عائلتي، وأنا عائلتها، كانت تتنفس ببطء شديد، ولكنها لا تحرك ساكناً، من شدة إرهاقي سلب النوم استيقاظي.

بعد بضع ساعات، أفقت من غفلتي، وكانت العربة ممتلئة على آخرها، ثم استيقظت كريمة هي الأخرى، واطمأنت كل منا على الأخرى.

تسير العربة بسرعة، فتتخبط أجسادنا الواهنة، فتخرج صرخة من هنا وهناك، توقفت العربات فجأة، فبدأ الخوف يدب في قلوبنا من جديد، لنكتشف أنه لم يذهب بتاتاً.

الشريحة ٢

قالت له والصدمة تملأ عينيها:

- نعم أنا أؤمن أنك بريء، وأنك لم ترتكب ذنباً واحداً، غير أن وجهك، الذي يحمل كل تلك البراءة، مُحال أن يقتل ويفجر، ولكن كيف لي أن أفعل ما تقول؟ وإن فعلت سوف أصبح شريكتك الجديدة، والسجن سوف يؤويني لا مفر.

أجلسها مجدداً برفق، وأخرج الدفتر من تحت وسادته، وقال بعد أن امتلأ وجهه بكل علامات النصر:

- إن ما يحويه هذا الدفتر، يحمل براءتي بكل تأكيد، ومن ثم لن يصيبك مكروه. أريدك فقط أن تساعديني على الهرب من هنا، وأنا سوف أتكفل بكل شيء بعدها.

قالت بحزم:

- وما الذي يجعلك تُجزم بصدق هذه الأوراق؟

تبخرت علامات النصر، والحيرة أخذت تطل من عينيه وقال:

- لا سبيل لي غير هذا؟

قالت بجراءة ممزوجة بحدة:

- ولكن ما الذي يجعلني أضع حياتي على وريقات، لا سبيل لي أو حتى لك كي تتأكد من صحتها؟ ثم أردفت قائلة:

- حتى وإن كانت صحيحة، ما الذي يضمن لي أنك تستطيع أن تثبت براءتك، وكل الأدلة في غير صالحك؟

عندما رأت اليأس يطل من عينيه، رقَّت لحاله بشدة، ولكنها خرجت فجأة، دون أي تعليق آخر.

خرجت، ومعها أدرك أنه لا أمل في الخروج من هنا، سوى معجزة واحدة من معجزات سيدنا موسي التسع، غير ذلك فسيكون السجن في انتظاره.

قطع تفكيره دخولها المفاجئ، وهي تلهث بقوة، وملابسها قد بُدِّلَتْ، حاملة في يديها زياً عسكرياً، ألقته تجاهه بسرعة، ثم طلبت منه ارتداءه في عُجالة، فليس هناك الكثير من الوقت، حتى يكتشفوا ما حدث.

دون أن يحرك شفتيه، قبض على الملابس الملقاة بكلتا يديه، بلهفة وكأنه غريق في بحرٍ لُجي يغشاه موج من فوقه موج، ووجد طوق نجاته من الموت فتشبث به، لحظات ووقف أمامها، وكأنه أحد أفراد الأمن المُطالبين بحراسته، أشارت إليه فخرج مُسرعاً، وعادا حاملين فرد الأمن، ووضعاه مكانه في السرير، ثم همست له قائلة:

- عشر دقائق سوف تجلس على ذلك الكرسي الموجود خارج الغرفة، وهي المدة المتبقية قبل أن يأتي حارس آخر يجلس أمام الغرفة ليحرسها، عندما يأتي ستتظاهر أنك مريض وتبدأ في السعال بشديدةٍ، ودون حديث ستهرول ناحية المرحاض، وأنت تضغط بيديك على منتصف بطنك، هناك سوف تجد على يسار المرحاض، سُلماً جانبياً، ستنزل عليه، دون أن تلتفت يمنياً أو يساراً، وحين تُصبح خارج المستشفى، تتوجه يميناً، حتى تظهر حديقة أمامك، هناك ستجدني في انتظارك.

تعجب تعجباً شديداً!! كيف؟ ومتى دبرت هذه الخطة المحكمة بهذا بسرعة؟

ولكنها الأنثى كعادتها إذا أرادت فعل أي شيء، لن يوقفها سوى ما هو أكبر منها بكثير، وسوف تقوم بمُرادها في نهاية الأمر.

وجد نفسه مُنقاداً لكل حرف قالته، دون تفكير، فلا أمل له الآن إلا هي، هي وفقط.

انتظر عشر دقائق، مرت علية كعشر قطرات ماء سقطت من السماء إلى الأرض في عشرة قرون مضت، مات خلالها أناس وخلق غيرهم، حتى حضر الحارس الآخر، فتظاهر بسعال شديد، ووضع يديه على بطنه، ووسط نداءات زميله القلقة، هرول تجاه المرحاض، فوجد باب السُلم الآخر

مفتوحاً فتحة صغيرة، دلف منه، ثم هبط على السلم مُسرعاً، حتى وصل إلى باب المشفى الزجاجي، والمحاط ببابٍ حديدي من الخارج، استوقفه حارس أمن البوابة الكبرى للمستشفى وقال له:

- أنت توقف.

شعر بدوار شديد، وتدفقت الدماء إلى قمة رأسه، فكادت أن تنفجر، ثم أكمل عملية تظاهره بالمرض وأخذ يسعل بشدة.

فقال له فرد الأمن:

- ما بك؟ هل أنت مريض؟ اذهب إلى أعلى فالدكتور إدوارد موجود اليوم، وهو طيب القلب وماهر أيضاً، هيا لا تتباطأ، وتدع الكسل يعتليك فيزداد تعبك.

أتى إليه من الخلف صوت أنثوي قائلاً:

- لقد ذهبت به للدكتور إدوارد منذ قليل، وكشف عليه، وطلب منه راحة تامة لمدة ٢٤ ساعة كاملة، وأعطاه بعض الأدوية، هي موجودة في الحقيبة، أخرجها له.

شعر بأنها ورطته بقوة، فإن الحقيبة لا توجد بها أي أدوية، وبتباطؤ وضع يده في الحقيبة السوداء، فأخرج منها كيساً به بعض الأدوية بالفعل، أعطاها لحارس البوابة فتفحصها دون علم، وقال له:

- تمنياتي بالشفاء العاجل، يجب عليك أن ترتاح كما أخبرك الطبيب، حتى لا يتضاعف ألمك.

هز رأسه شاكراً، وفي ذهول حمل الحقيبة وذهب، فتلفت حوله فلم يجد الفتاة، سار على نفس سياق الخطة الموضوعة، حتى وصل إلى الحديقة المرجوة، وجدها في انتظاره، وأخذ الاندهاش يأكل تفكيره وعقله قطعةً قطعةً.

وتساءل بذهن شارد: ما هذه الفتاة؟! في البداية ترفض مساعدته، ثم تخرج وتأتي له، واضعةً خطة يصعب اكتشافها بسهولة!!، فتظهر له عند باب المشفى، وتخلصه من فرد الأمن، بعد أن وضعت له الأدوية في الحقيبة، وها هي الآن تنتظره في مكانها المحدد، في تواضع وكأنها لم تفعل شيئاً؟؟!!.

دون حديث، جذبته من يده المرتجفة، وترجَّلت به مدة طويلة، حتى وقفا أمام باب بيتٍ صغيرٍ، سبقته ووضعت يديها خلف مزهرية بنية اللون، صغيرة، وأحضرت مفتاحاً، ثم دلفت داخل البيت، وقالت بسخرية:

- هل ستدخل؟ أم ستظل هكذا حتى يأتوا ليقبضوا عليك؟

استفاق من شروده، ودخل مُسرعاً مصطحباً حذراً شديداً، كاد أن يُسقطه على الأرض، بعد أن اصطدم بأحد الكراسي.

ظهرت منها ضحكة أربكته، ولكنها بددت بعض القلق والخوف بداخله وقالت:

- لا تخف هذا المكان آمن، هو لجد أمي، ومنذ زمن لم يأتِ أحدٌ، فلا تخف أنت بمأمن هنا، أنهت كلامها، ثم سارت تجاه المرحاض، حين عادت وجدته وقد اقتحمه النوم عنوة فضحكت، ثم توجهت لغرفة أخرى، ونامت هي الأخرى.

الأندلس ٢

فوجئ عبد الرحمن الناصر حين دخل على ولديه في مكتبة القصر الكبيرة يوماً، ليجد ابنه الحكم، واقفاً على قدميه، مُمسكاً بكتاب يقرأ منه بصوت مسموع، وأخاه محمد يتوسط أبناء عمَّال القصر، منصتاً مثلهم بشدة، حتى إنه لم يلحظ دخول والده من الخلف.

استأنفت الحكم القراءة، بعد أن أشار الأب إلى ولده الذي يتقمص دور المعلم في هذه اللحظة، بأن يستمر، وكان قد توقف لحظات حين لمح والده، تبجيلاً واحتراماً له.

انبهر الأب من ابنه وحركاته، التي إن دلت فإنما تدل عن قارئ حصيف ومعلم حاذق، حينها تنبأ بمستقبل منير بالكتب، مشرق بالعلم لولديه الصغيرين، ولكنهما الآن لم يَعُدَّا صغيرين بسبب تلك الوريقات المدفونة بين دفتين سميكتين من الورق المقوى، تحمل في طياتها ألواناً شتي من العلوم والأحداث والأبحاث، التي ما إن يقرأها إنسان ما، إلا وأضاف أعماراً إلى عمره، وخبرات إلى ذاكرته، وحيوات إلى حياته، لن يعيشها في عمره الصغير، بل إنه يدخل لعقول أشخاص، لن يتمكن يوماً من الجلوس معهم، وأكبر دليل تلك الصورة التي يراها أمام عينية رؤية العين، صورة

حية لا غبش تشويش فيها، صورة تتنفس الهواء، وتنبض بدقات قلب حقيقية، تشعر بها وبحرارتها حولك.

بعد وقت لم يدر عبد الرحمن مقداره، توجه الطلاب إلى أعمالهم، ثم جمع ولديه وقال لهما في لين:

- منذ متى وأنتما تفعلان هذا؟

قال الحكم:

- منذ ما يقرب العام، ولكننا لم نشأ أن نخبرك لانشغالك بأمور الرعية، التي ندعو أن يعينك الله عليها.

فأردف محاولاً سبر أغوار عقول ابنيه، مقتحماً ذلك الجانب من عقليهما فقال:

- ولماذا تفعلان هذا؟ أليس من الأفضل أن تستزيدا من قراءة الكتب، لتعلوا بعقليكما، وتستزيدا من العلم؟

ابتسم محمد في أدب جم ثم قال:

- يا أبت كم من هؤلاء الأبناء يمتلك آباؤهم مثل مكتبتك الضخمة، التي نهلنا من علمها وارتوينا من كتبها؟

وإذا كان الآباء يمتلكون الكتب، فكم منهم أرشد أبناءه إلى قراءتها؟

يا أبت إن كثيراً من أبناء المسلمين في بلادنا وغيرها، لا يهتمون بالعلم والكتب، وإنَّا بفضلك- بعد الله- حصدنا ثماراً أنت وضعت بذرتها، والآن جاء دورنا لنضع بعض البذور في بعض العقول، لعل أمتنا تجني ثمارها في يوم من الأيام، يا أبت لقد قرأت في أحد الكتب، أنه إذا منَّ الله على أحد عباده وأكرمهم بالمال الوفير والرزق الكثير، وجب عليه أن يُخْرِجَ الزكاةَ على تلك الأموال، فيزيد الله أمواله ويبارك له في رزقه، وكذلك الحال في العلم، يا أبي حين يفتح الله على أحد عباده بالعلم، سواء كان غزيراً أو قليلاً، وجب عليه أن يخرج لهذا العلم زكاته. وزكاة العلم إخراجه إلى الناس، وتعليمه لهم، وإن كان قليلاً. فما فائدة الكتب إذا قرأناها، ولم يَعْلَمْ أحدٌ عنها خبراً إلا نحن؟؟، وما النفع الذي يعود على الأمة التي لن تستعيد كامل مجدها، إلا عندما تعود إلى تلك الخطوات التي بدأت بها، حيث كانت أول خطوة هي "اقرأ"؟؟، فلا بد أن نقرأ ونعلم ما تلك الأشياء التي جعلت الأمة تتقدم كل ذلك التقدم الهائل، في سنوات قلائل، وما الأسباب التي جعلتنا نعود إلى الوراء، خلف الأمم، وأهدرت دماء خير البشر، الذين ضحوا كي تصل إلينا كل تلك العلوم يسيرة.

سكت محمد، والدموع تترقرق من عينيه، لتُدفِّئ خديه، فاستلم الحكم الحديث منه قائلاً:

- يا أبت رُغم أننا لم نبعد عن أيام نهضتنا سوى مئات السنين، فإننا كدنا أن نكون في ذيل الأمم، ومما تعلمنا أدركنا أنه لن ينصلح حال أمتنا، إلا بما صلح به أولها، وأولها كان "اقرأ"، كما قال أخي محمد، لذا قمنا بجمع هؤلاء الصغار وغيرهم من طلاب العلم، الذين نتوسم الفهم فيهم، وتعليمهم ما تعلمناه من هذه الأوراق، لعلهم يكونوا نواة لشيء كبير، قد يفيد الأمة في عصر من العصور، قَرُبَ أو بَعُدَ.

زاد اندهاش الأب بابنيه الصغيرين، اللذين كان يتمني من الله أن ينفعا لتلك الأمة، التي لا يعلم مصيرها إلا هو، تنهد تنهيدة طويلة ثم قال:

- الحمد لله.

السفينة ٢

أحدهما ضخم الجثة، هائل البنية، أصلع الرأس ملابسه رثة، بدا عليه الغنى يوماً من الأيام، والآخر ليس بقصير، ولا طويل، متوسط القامة، لكنه يميل إلى القصر، جسده هزيل، لكنه منتصب كالصقر الشامخ، إصابات عديدة زيَّنت وجهه، وأخرى لم تترك جسده إلا بذكرى تدوم معه لآخر العمر.

توقف المتشاحنان عن القتال، وخلعا ملابسهما العُلوية، بما فيها طوق النجاة، ذو اللون البرتقالي، في استعداد تام لخوض معركة تصنع بطلاً وهمياً، يحظى، لدقائق معدودة، بتصفيق الجماهير السكارى، التي التفت حولهما في شكل دائري، عدا جزء صغير على حافة السفينة، في دعوة منهم للمتصارعين لأن يرمي أحدهما الآخر خارجها ليكون هو الفارس المنتصر، والبطل المُظفر.

تطوع واحد من الجمهور، ليكون حكماً لتلك المعركة، وبدأ في العد التنازلي، كي يشرعا في القتال، وقبل أن ينتهي الحكم من العد، هجم الطويل على الآخر، فألصقه بأرضية السفينة، لتتعالى الأصوات بشدة تشجيعاً.

بتباطؤ قام الرجل المتهاوي من فوق الأرض، ودخلا في شجار عنيف، كل منهما يصفع الآخر صفعة شديدة، حتى سقط الطويل على الأرض، ولم

يحرك ساكناً، بعد أن خارت قواه، وذهبت بلا رجعة، تركه الآخر، وشرع في التقاط أنفاسه، واستجماع قواه الواهنة، حتى اقترب الناس من الشخص المسجى على الأرض، وحملوه، ثم توجهوا إلى حافة السفينة المفتوحة على البحر المُوحش، ليدفعوه خارجها، فيكون طعاماً للأسماك والقروش في تلك الليلة.

أخذ المنتصر يصيح صيحات هستيرية، وسط الدائرة البشرية، امتزجت بصياح الآخرين، وتصفيقهم المتزايد، ثم شرع كل منهم في العودة لمكانه المُعتاد، فهدأت الأصوات رويداً رويداً، وتبخرت الدائرة، وأصبحت طي النسيان، لتعود معها الحياة على السفينة، إلى سالف عهدها مثل ذي قبل.

لم يستوعب إياد أي شيء مما حدث، وكأنه في عالم غير العالم، دنيا يقبع فيها وحيداً بآلامه، منعزلاً بأحماله التي لن يتحملها، ولن يشعر بثقلها إلاه، آلام تشبعت منها الدماء والأشلاء، آلام يسطو عليها شعور الفقد، والتشرد، والوحدة، والقهر.

فَقَدَ الاحتواء والحنان، متمثلين في عائلته الصغيرة، لم يدرك يوماً أهمية هؤلاء الأشخاص، وقيمتهم الحقيقية حينما كانت حركاتهم تنبض بالحياة أمام عينيه، كعادة البشر الغافلين، لا يشعرون بقيمة الأشياء، إلا عندما تصبح سراباً، وتصير من المفقودات، فيتشدقون بذكراها، ويتمنون عودة ما

فقدوه، حتى ولو لِلحظات قليلة، يمعنون النظر إليها، ليشبعوا ولو جزءاً صغيراً من تلك الرغبة المُلحة.

في أوقات كثيرة لا تدري أي عمل يتوجب عليك فعله، أو القيام به، فينتابك شعور بالتيه، ويغمرك إحساس بالضياع، فتشعر بأن هناك شيئاً يجثم على صدرك، ليزداد ضيقاً بعد اتساع، فلا تبكِ كالنساء؛ فإن كل ما تعرضت له في حياتك لن يساوي جزءاً صغيراً مما تعرضت له في نصف حياتي.

رفع رأسه لأعلى ليجد أمامه فتاة في سن صغيرة، في مثل سنه، بشرتها سمراء ذات ملامح إفريقية، ترتدي ملابس رثة كالجميع، وكأنه الزي الرسمي لقاطني السفينة.

ألقت بهذه الكلمات في وجهه، ثم جلست بجواره، ومدت يدها منتظرة مصافحته إياها.

مد يده في تثاقل شديد، حتى وصلت ليدها فتلامستا برفق.. فقالت:

- أليس.. أنا أليس.. وأنت؟؟

الأهواز١

شيخ كبير بدا عليه الوهن والضعف، خاصة في قسمات وجهه، بعد أن تركت فيه مصائب الدنيا وهمومها آثاراً كبيرة، وكأنه خرج للتو من حلبة المصارعة، كل تجويفة حفرت قصة، ونحتت مشهداً، قد لا تنساه ذاكرة مثل ذاكرته.

تجلى المشهد أمام عينيه فجأة بازغاً- بزوغ الشمس التي رأى سيدنا إبراهيم يوماً أنها إلهاً- وكأنه حدث منذ ساعات. مشهد مضت عليه عقود ولَّت، لكنه لم يستطع إسقاطه من ذاكرته الفولاذية، التي لم تنس شيئاً يوماً، وكيف تنسى وقد خلقت لتذكر غيره، علَّه قد يغير ذلك الماضي التعيس، المملوء بأثقال الجبال، والغارق في أعماق الوحل والمستنقعات؟؟!!.

حجرة متوسطة الحجم، يقبع فيها عدد من الأطفال الصغار، كل منهم يجلس على كرسيه المهترئ، وأمامه منضدة يضع عليها كتبه الخاصة بالدراسة، عُلِّقت أمامهم لوحة بيضاء- سبورة- كتب عليها تاريخ اليوم، كانت الضوضاء تَعُمَّ المكان، حتى دخل المدرس، فغاصت الضوضاء في صمت الوقار.

تحدث الأستاذ بذهنٍ شاردٍ قائلاً:

– إن درس اليوم هو التاريخ الحقيقي لهذه البلاد، غير الذي دُوِّن لكم خصيصاً في الكتب المزورة، فالآن حَقَّ عليّ أن أعلمكم ما علمنيه آبائي وأجدادي، عن حقيقة البلد الذي نعيش فيه.

سار الخوف في أوصال طلابه، الذين لم يعتادوا مثل هذه الطريقة لمعلمهم من قبل، شعروا وكأن هناك أمراً جللاً على وشك الحدوث، وكلاماً مهماً، تدب أطرافه على أعتاب شفاه معلمهم، الذي لم تختف ابتسامته يوم، عدا تلك اللحظة.

بعد موت الإسكندر الأكبر قُسِّمَ مُلْكُهُ إلى أقاليم، وسكن العرب أحد هذه الأقسام، وسموه "الأحواز" حتى أحتله الفرس، فأطلقوا عليه خوزستان في العهد الساساني، وتعني بلاد القلاع والحصون، ثم أطلق عليه الأهواز في الفتح الإسلامي، ثم كزستان في العهد الصفوي.

المدير ٣

حَقَّقَ مجال الاتصالات عالمياً نجاحاً واسعاً؛ حيث جعل العالم بأكمله على اتصال دائم مع بعضه البعض، بسهوله ويسر، لا يعجزه زمان ولا مكان، كما لم يكن قبلاً، بالإضافة إلى أن تكنولوجيا المعلومات أضحت تُستخدم على مستوى العالم في جميع المجالات، الخاصة والعامة، وللعمل والترفيه وللكبير والصغير، كل شخص في هذا الكوكب، أصبح مُحاطاً بأجهزة تمكنه في أي لحظة من الاتصال بمن أراد، وقتما أراد عبر الإنترنت.

وتُعَد شركة تشينا موبيل (china mobile) من كبرى الشركات التي تربعت على العالمية في مجال الاتصالات، شركة صينية تضم ما يزيد على ٧٠٠ مليون مشترك عبر العالم، أي ما يقارب سُدس سكان العالم، وصلت اتصالاتها إلى جبال إيفرست، أما إذا تحدثنا عن إيراداتها فتصل إلى ٨٨.٨ بليون دولار، مقدار الأرباح منها ٢٠.٥ بليون دولار، أي أن إيراداتها تتخطى اقتصاد عشرات الدول مجتمعة مع بعضها.

****

قبض على هاتفه، وعقله يزداد اشتعالاً بسبب تلك الصورة التي لم تفارق عقله قيد أُنمُله، طلب رقماً يحفظه جيداً، رقماً لصاحبته فضل كبير في وصوله إلى مكتبه الفخم، ذي المقعد الوثير، الجالس عليه حالياً:

- ألو.. هاي ألونسو، كيف حالك يا رجل؟؟

جاءه صوت أُنثوي ناعم من الجهة الأخرى، مليء بالحماس، يشع إثارة، وكأن أحباله الصوتية جيتار يعزف، لتنبت موسيقى رائعة، تطرب لها الأفئدة، قبل الأسماع.

رد ألونسو بفتورٍ مصطنعٍ، ممزوج بنبرةٍ حزينةٍ فقال:

- أنا بخير تينا، كيف حالكِ أنتِ؟؟

بعد صدمتها اللحظية، قالت تينا:

- أنت لست بخير ألونسو، صوتك يخبرني بغير ذلك، أنا أعلمك جيداً، قل لي ما بكَ؟؟

وكأنه استسلم، قال:

- بالفعل، أنا لست بخير، لست على ما يرام يا تينا، فكل ما بنيته في سنين، وكل ما راهنت عليه، اقترب هدمه وهدمي معه، إن الموت ينتظرني أسفل كفة حياتي، التي إن مالت مليمتراً واحداً، فسيلتهمني دون رحمة.

نزعت الحزن من على وجهها، ثم ابتسمت، وقالت في دلال:

- لن يحدث هذا وأنا بجوارك ألونسو، أليس كذلك؟

انفرجت شفتاه باسمة، ثم قال بنبرة صَنَعَ اليأس فيها:

- ولكنكِ بعيدة كل البعد عني تينا، بيننا آلاف الكيلو مترات، بيننا بحار ومُحيطات، أنتِ لست بجواري، أنا أعيش وحدي، كما أن أعمالك وأشغالك كثيرة، ولن أسمح لنفسي أن أثقل أحمالكِ عما أنتِ فيه.

ألقى بكلماته في أذنيها، وأصبغها بنبرة حزن مصنوعة بحرفية بالغة، كي تأتي بثمارها، ولسان حاله يزداد تبسماً، لشعوره بدنو انتصاره عليها، واقترابه من مُراده.

قالت تينا بحزن:

- لا تقلق حبيبي، ٤٨ ساعة تفصلني عنكَ، ٤٨ ساعة وسأكون بين يديكَ، فأنا لا أستطيع التأخر عنكَ لحظةً، وأنتَ تدرِك ذلك.

أغلق الهاتف، وضحكاته تجوب المكتب ذهاباً وإياباً، ليغرق فجأة في ذكرى مضى عليها عُمرٌ، كادت أن تضمُر، وتموت مع ما مات.

الياسمين ٢

أنزلونا من العربات، وأنا وأختي ملتصقتان كتوأم ولد في تلك اللحظة، يحتاج إلى طبيب عظيم، وعملية جراحية كبيرة، وممرضين أكفاء كي يفصلانا، سرنا في ممر طويل بين سيقان بشرية، وأوجه ملثمة تحدنا من اليمين والشمال، حتى أدخلونا منزلاً كبيراً عبر بوابة ضخمة، ثم حُشرنا في غرفة كبيرة جداً، لكنها لم تكن لتحمل نصف عددنا الكبير، وشرعت الأيام في الاختباء خلف بعضها البعض، لتبدوا يوماً واحداً ونحن لا نأكل إلا أقل القليل من الطعام، حتى مات منا عددٌ، لم يتحمل هول تلك الغرفة الموحشة والمتوحشة، سارت أيام بطيئة رتيبة، لا أعلم عددها، لافتقادي الشعور بأي شيء يحدث حولي.

شباك عالٍ لتلك الغرفة، تنظر إلينا وتراقبنا منه أعين- اغتصبت البرودة دفء عاطفتها- لأشخاص سماتهم بعيدة كل البعد عن خاطفي ومغتصبي قريتنا، أناس بيض البشرة ذوو أعين ملونة، لم أكن قد رأيت مثلهم قبلاً، ولكن الغريب في ذلك، أني كلما رأيتهم أجد الغرفة تُفتح ليؤُخذ منها بعضنا، ليس عدداً محدداً، قد يكون طفلاً أو طفلين، أو أكثر من ذلك، أما الطامة الكبرى أن من يخرج لا يعود أبداً.

يعتريني الفزع، ويتملكني القلق، ويعلو على خوفي علواً شاهقاً، كلما رأيت تلك النافذة تُفتح، أو كلما سمعت صدى أقدام في الخارج، فنحن لا نعلم أين يذهب مَنْ يخرج منها؟.

ذات يومٍ جاء الدور على أختي كريمة، لم أقو على الصراخ، ولا حتى التشبث بها، ليس خوفاً أو هلعاً، ولكن تملكني الذهول، وشعرت بعدم القدرة على استيعاب أي شيء، مما يحدث حولي، وكأني ذهبت إلى عالم آخر، بَعِيدٍ كل البعد عن غرفتنا الموحلة، التي ليست فيها أختي، التي تُسلب مني الآن.

خرجت كريمة ومعها خرجتْ روحي، خرج كل ما تبقى لي في هذه الحياة، لم أذق للأكل طعماً، ولم أعد أبالي بشيء، بعد أن ذهب كل شيء مع أبي وأمي، ثم أخيراً أختي.

فرغت الغرفة إلا من عددٍ قليلٍ جداً، حتى حان دوري، فرحلت لا أعلم إلى أين؟؟ ولم أكن لآبه بذلك ولكني رحلت، وأصبحت منذ يوم رحيلي تلك الفتاة المسيحية الراهبة، ذات الرداء الأسود، المزين بالبياض، والهادئة التي لا تتحدث كثيراً.

- البابا مرقس يريدك.

جاءني صوت (مايا) من الخلف، فأعادني إلى مكاني الذي أعيش فيه منذ ما يقارب العشرة أعوام.

(مايا) فتاة صغيرة جميلة، استقبلتني عند قدومي، واعتنت بي، ومنحتني شعورَ الأخت، الذي سُلب مني عنوة، والعائلة التي قُتلت أمامي. شاركتني ذاكرتها، وشاركتها ذاكرتي، فكنا في تقارب كبير. لقد هجم اللصوص على قريتها، ولكن أهلها أخفوها، في سرعة، في صندوقٍ صغيرٍ كحجمها، حتى وجدها بعض الناس، فوضعوها أمام الكنيسة، التي اعتنت بها جيداً، وخففت عنها الكثير مما وقع على رأسها، كما حدث معي تماماً.

هززت رأسي علامة الموافقة، ثم قمت في تكاسل، ارتديت ملابسي، وذهبت إليه. جلست عند قدميه، ورأسي مطأطأ لأسفل، علامة الاحترام والتبجيل، فوضع كفه على أم رأسي ليباركني، وتمتم بكلمات قليلات بصوت خافت ثم قال:

- يا بُنيتي، منذ قدومك إلى هنا وأنتِ ساكنة سكون القبر، لا تتكلمين إلى أحد ولا تُشارك .....

لم يعبر عقلي حرف واحد، بعد تلك الجملة، وتوقف عن العمل، ثم عادت ذاكرتي تعمل من جديد، فهبت واقفةً في تلك الغرفة، التي شاخ الأطفال فيها، وشابت وجوههم من هول ما رأوا، كنت نائمة أو مستيقظة، لا

أتذكر، ولكن حينها لم أكن أشعر بشيء، فراغ من حولي وفراغ من داخلي وعقلي، تجمدت مراكز الإحساس والشعور لدي.

اقتادني شخص ضخم البنية، عظيم الجثة، ملثم الوجه، لا يظهر منه سوى عينين غليظتين، تشعان غضباً، وتنشران الفزع في قلبي، ذلك القلب الصغير، الذي تحمَّل في أعماقه أشياء، لا يتحمل نصفها الكثيرون: دماء والدي، وهتك عرض أمي وعرضي، ورحيل أختي، لا أعلم إلى أين؟، وآهات مازالت تتردد في أذني رغم انتهائها.

ما هذا؟؟!! وأنا لم أعبر التاسعة من عمري!!، رباه!! لماذا يحدث معي كل هذا؟؟ هل اقترفت جرماً كبيراً؟ لماذا حييت أنا؟؟ لماذا لم أمت مع من ماتوا؟؟ رباه!! .. أنا أعلم أنك تسمعني من مكان ما، وتشعر بي أيضاً- هكذا أخبرني والدي- انجدني يا الله.

اقتادني على غير المعتاد برفق إلى تلك السيارة الزرقاء، مازلت أتذكر لونها، بل كل شيء في ذلك اليوم الذي بعثت فيه من جديد، كانت سيدة في العشرين من عمرها، استقبلتني بابتسامة جميلة، منحتني بعض الأمان، كنت قد نسيت شكل الابتسامة والضحك، بل معناهما أيضاً، ابتسمت رغماً عني وفرحاً، فشعرت بثقل في عضلات وجهي العابث منذ شهور، قدمت لي بعض الحلوى، فمددت يدي، متلهفة إليها، أنهيتها بسرعة البرق، فناولتني

غيرها، ثم غيرها، حتى بعد أن داعب الشبع بطني، واصلت أكل المزيد، خوفاً من انقطاعها عني في أي لحظة. استمر الحال فترة، حتى اعتراني بعض الأمان، فرحت في نومٍ عميق، وكأني لم أنم طوال عمري.

تفتحت عيناي كوردة لامست الشمس أوراقها، لتدب الحياة فيها، بعد ذبول دام لأيام مرت كدهر على طفلة لم تر النور بعد، كان الجو هادئاً منعشاً، وكأنه الجنة، لا بل أي مكان غير الذي كنت فيه، هو الجنة بعينها، استفقت من شرودي على صوت ناعم، أطرب أذني قائلاً:

- صباح الخير.

حاولتُ النطق، لكن لم يكن باستطاعتي، ذلك لضمور عضلات فمي من أثر الصمت كل تلك المدة، لكني أظهرت ابتسامه واهنة متألمة على وجهي، دقائق وجاء الطعام إلى سريري الناعم، فالتهمته بسرعة رهيبة، فتعجب من حولي، ومرت عليّ أيام في هذا النعيم، حتى جاء أحد الرجال الكبار، ذي لحيةٍ كثيفةٍ، وابتسامةٍ عريضةٍ، وطولٍ فارعٍ وشعرٍ أبيضَ، يظهر بعضه من تحت غطاءٍ أسودَ، يتوسطه صليب كبير، ورداء طويل أسود، أعلاه صليب. يدان ضخمتان في إحداهما عصا طويلة، يترأسها صليب، والأخرى وضعها على رأسي، وتمتم بكلمات قليلة هامسة في أذني، ثم تنحى بعيداً، لتأتي إحدى الفتيات الجميلات، مصطحبة ابتسامتها الرقيقة، لتنزع عني ثيابي في رفق،

ثم تغسلني غسلاً غريباً، غير الذي كانت تغسلني إياه أمي، انتهوا من الغسل، وألبسوني ثياباً بيضاء، بعد أن باركني الرجل الكبير بكلمات عالية، تلاها تصفيق من الحاضرين وكأنه احتفال.

الشريحة ٣

إذا شرعت في تنقيب سطور ذلك الدفتر، فهذا يعني أنك فقدت ذاكرتك الآن، وأصبحت مشرداً ومطارداً من العالم أجمع، وخاصة أصحاب المركز، فاحذر كل من حولك، ولا تمنح الأمان لأي إنسان بسهولة، واحرص بشدة على ألا يقع ذلك الدفتر في قبضتهم، فذلك يعنى هلاكك لا محال.

بمجرد أن يلتهم عقلك الكلمات المحفورة فيما بين يديك من أوراق، فستعلم كل شيء، وتتذكر ماضيك، أو بمعنى أدق، ستتعرف على الطريق، لتستعيد ذاكرتك مرة أخرى، وتستعد لاستكمال الحرب التي بدأت.

بداية من يكتب هذا الكلام هو أنت، نعم لا تُصدم، أنت صاحب هذا الخط، والذي خط بيديه تلك الأسطر، حين استشعرت الخطر القادم إليك، لك كامل الحق في ألا تُصدق ما قرأت، ولكن ستجد حين تصل لآخر سطر في دفترك، إجابات كافية وصريحة على ما ينهش عقلك من أسئلة، وسأُركز على الأشياء المهمة بحياتك، وبعدها ستتذكر كل شيء.

- من أنت؟

- أنا جوزيف، وُلدت في لندن من أم إنجليزية وأب برتغالي، ولي أخ يكبرني بدقائق، لكن لا وجه للتشابه بيننا، ليس كما الحال في كل من يولدون سوياً، كانت اهتماماته تختلف تمام الاختلاف عن اهتماماتي، فأنا أمتلك

القدرة على الجلوس، ساعات طوال، أمام جهاز اللاب توب الخاص بوالدنا، دون سنتيمتر واحد من الملل، وهنا اكتشف والدي ولعي بالكمبيوتر، فأمدني بجهاز خاص بي، كي يتاح لي الوقت، لأتعلم ما أريد، دون معوقات، ومن ثم أتقنت جميع لغات برمجة الكمبيوتر، بداية من **html** وصولاً إلى .....، ثم تعلمت جميع أنواع الهاكرز، وكيفية اختراق أجهزة الكمبيوتر، والهواتف المحمولة، فأصبحت كلعبة البازل، أشكل وأبني بها ما أبغي، وقتما أشاء لمن أريد.

حين تخرجت في الجامعة التقطتني شركة متوسطة الشهرة، للعمل بها، فلم أرفض كي يتسنى لي التدريب العملي على كل ما درست، تدرجت في المناصب سريعاً، ومع كل يوم، وكل منصب، وكل زميل، عملت معه، كنت أتعلم منه دون خجل، حتى وإن كان أقل مني منزلة.

ذات مرة حين سُئلتُ عن قدوتي أجبت بكل طلاقة:

- إن قدوتي هو كل شخص يمتلك معلومة لست أعلمها مهما كان حجمها، وبذلك يكون كل شخص أستاذي، حتى أتعلم منه ما ينقصني، تعلمت كثيراً، وأضفت خبرات إلى خبراتي، بفضل هذا المبدأ، انتقلت إلى شركات عالمية، وعرف اسمي كل من يعملون في هذا المجال.

خلال تلك الفترة مات أبي وأمي، وغاب أخي عني، لا أعلم عنه شيئاً، وتملكتني الوحدة، وأدركت كم كنت مخطأً في حقهم!! وكم كنت قاسياً وأنانياً!!، وحاولت سريعاً أن أتناسى، وبالفعل تناسيت، وانتهي كل شيء حتى ذلك اليوم.

كان يوماً كباقي الأيام، لا جديد فيه، هاتفني مديري مسيو (كال)، وطلب مني بعض الأعمال البسيطة لأنجزها، وحين انتهيت منها، ذهبت إلى مكتبه، وكما هو معتاد بيننا، دلفت إلى مكتبه دون أي إنذار، فلاحظت ارتباكه، ومن شدته أوقع حاسوبه، فارتطم بقوة بالأرض، حتى كُسرت شاشته، ولكن قبل ذلك لمحت صورة جذبت انتباهي بشدة.

بصوت جهوري، لم أنشغل به عنفني بقسوة، استغرب منها الجميع قبلي، والغريب أنني لم أشعر بها بتاتاً، لانشغال عقلي بما رأته عيناي، اعتذرت لمديري عما حدث، وبتباطؤ خرجت، ولكن ليس كما جئت.

عصر التفكير عقلي، فتألم قلبي، وتهت عن دنيانا، لا أدري ما أفعل، أأتظاهر بأني لم أر شيئاً، وأعود لحياتي كما كانت؟؟

أم هل أجازف بكل ما بنيت، وبكل ما أبنى، وما سأبنى، وأسير خلف فضولي الذى بُعث للحياة من جديد؟

مضت أيام دون تغير في يومي: العمل، ثم النوم، ثم العمل. لا وقت لي لغير ذلك، ولكن هل سيبقى حالي على ما هو عليه؟؟ أم ماذا يُخبئ لي القدر؟.

استيقظت الطبيبة فوجدته قائماً على دفتره، يقرأ فيه بنهم قاتل، كحاسب آلي فقد بيانات تعريفه، فينسخ كل ما يقابله، ليتمكن من العمل من جديد.

تنحنحت فلم يلتفت، رفعت درجة صوتها ولا جديد، لكزته لكزة خفيفة، فترك الدفتر، ورفع عينيه إليها، وقال لها بصوت طفل، نسى اسمه ليتذكره فجأة:

- أنا جوزيف وأنا وأنا.....

وأخذ يسرد كل ما قرأ، حتى فُغِرَ فاهها!!، واتسعت حدقتا عينيها من هول ما سمعت!!، فلم تستطع الحديث بتاتاً!!.

بعد فترة تعجب طالت، تحدثت قائلة:

- أكمل القراءة وسأخرج لأحضر بعض الطعام.

وضع يده على جيب بنطاله، فتذكر أنه لا يملك أي نقود، فقالت بود:

- لا تقلق، معي نقود تكفينا بعض الوقت.

دون كلام نظر إليها شاكراً، وأمسك دفتره من جديد، ليغوص في بحر ذكرياته.

****

أحضرت "اللاب توب" ووضعته أمامي في تحدٍ، وقررت اختراق حاسوب مسيو كال مديري، بسلاسة بالغة، كان كل ما على حاسوبه أمامي، أتصفحه كما يتصفح الناس الكتب.

وجدت معلوماتٍ قاتلةً عنه، وعن جرائمه، وصوره الخليعة مع فتيات، يعملن معي في الشركة نفسها، وفيديوهات من هذا النوع له، ولأشخاص أعرف بعضهم، أعتقد أنه يستغلها لتحقيق بعض المصالح، حين يرفضون تقديم المساعدة له في أمر ما.

لم أنشغل بهذا، وظللت أتفحص حاسوبه بدقة، حتى وجدت ملفاً، كُتبت عليه عبارة "شديد الخصوصية" ومؤمن بطريقة قوية، اخترقته، ولكن ليس بسهولة، فوجدت الصورة أمامي مباشرة، لا أعلم ما أقول. ظللت أتأمل الصورة طويلاً لأتأكد منها.

دق جرس الشقة فتوجهت لأعلم من الطارق، فتحت الباب لأجد مسيو كال أمامي و"اللاب توب" خلفي مفتوح على لحظة اختراقي لحاسوبه، فصعقت حتى تجمد الكون من حولي، في هذه اللحظة أعلنها جسدي مدوية أنني أصبحت حملاً ثقيلاً عليه، فأغشي عليّ.

السفينة ٣

حاولتْ برفق أن تَنسَلَّ يدها من يده، التي أطال القبض عليها، كأنه يحاول أن يستمد منها شيئاً فقده، ويحتاجه بشدة، شيئاً من الأمان أو الاطمئنان اللذين افتقدهما منذ مدة قصيرة، مرت عليه مثل عشرات السنين.

ترك يدها في خجل، بعد أن وصلت إليه دقات قلبها المتسارعة قائلاً:

- وأنا إياد.

قالت له، بابتسامتها التي تخفي خلفها كثيراً من الألم، محاولة خفض حالة التوتر بينهما:

- جميل هذا الاسم، ولكن من أين حصلت عليه؟

عاد إياد بعجلة تفكيره سنواتٍ، ليتجلى مشهد والدته في تلك الليلة، تتوسط العائلة المفقودة وهي تخبره، وضحكات الجميع تملأ المكان، بأنها هي من أرادت تسميته بهذا الاسم، تيمناً بالشيخ أحمد يس، الذي أرعب جيوش الاحتلال، بل إنه أسكن الفزع في قلب أكبر دولة في العالم، وهو جالس على كرسيه المُتحرك، بقدميه المشلولتين، لذلك كان يعشقه.

أكملت حديثها، بعدما رأت الدموع تهرب من عينيه، فقالت له:

يا إياد، لا تبكِ على أشياء ولّت؛ لأن عمرها قد انتهى، فإننا نُساق إلى أقدارنا بأقدامنا، فحاول أن ترضى، وتتكيف مع ما يحدث لك، فإنك ما إن

رضيت، مرت عليكَ هينة خفيفة، وإن لم ترض ستمر عليك أيضاً، ولكن سيكون لك باعٌ مُضاعفٌ من الألم، ألم البلاء، وألم التعجل والتسرع، وعدم القدرة على الصبر.

تعجب إياد من هذه الكلمات، القليلة الحروف، كبيرة المعني!!، التي خرجت من صاحبة هذا الفيه، والتي يبدو عليها صغر السن.

استأنفت الكلام، بعد أن رأت الدهشة ترتسم على وجهه، وقالت:

- لا تتعجب من كلامي، فإن ما واجهته في حياتي، قادرٌ على أن يسافر بعمري بعيداً، ليُزيد منه أياماً وشهوراً وسنيناً، قضيتها فيما اصطدمت به من أهوال، مثل تلك الأشياء التي تسيل لها دموعك على الدوام، والتي قد نتشاركها سوياً إن سمح لنا الزمان.

قالت تلك الكلمة، ثم تركته وحيداً بين أفكاره السوداء، وذكرياته القاتمة، ودموعه الحارقة، فأمال رأسه للوراء، في محاولة لإراحة عنقه، الذي يحمل رأسه المملوء بذكريات، أثقلت الحمل على رقبته فتألمت.

غط إياد في نومٍ عميقٍ، لتقفز في أحلامه صورة عائلته الصغيرة، والضحكات المتناثرة من أخيه الكبير آدم، وأمه وهي تطهو لهم بعض طعام الغداء، ووالده العائد من العمل بعد عناءِ يومٍ طويلٍ، لينشر البهجة بوجوده في قلوبهم، والسعادة على وجوههم، والنشاط في كل أروقة المنزل، رأى

نفسه واقفاً مع والدته، يساعدها في إعداد الطعام فرحاً، سار باتجاهها، ووقف أمامها، ولكنها لم تره، بدا وكأنه سراب، وهو في الحقيقة سراب، فتح يديه على آخرهما، ثم أحاط والدته بهما، كما كان يفعل، وضمهما في سرعة، علَّ أمه تشعر بوجوده، ولكن عندما تلامست يداه، لم يحدث شيء، ولم تحرك الأم ساكناً، حتى اختلط عليه الواقع بالحُلم، فأصبح الحُلم واقعه، والواقع كابوسه وحلمه، فعندما ينام يعيش واقعه الذي يتمناه من كل قلبه، وحين يستيقظ يكون هو الكابوس المُرعب الذي يخشى مواجهته.

سوريا ١

محمد أحمد بشير أخي، صاحب الخمس وعشرين عاماً، تخرج في كلية الطب حديثاً، منذ صغره يعشق القرآن الكريم، فأكرمه الله بحفظ ما يزيد على ثُلثه، كان بكتب الشريعة الإسلامية، والسيرة النبوية المُطهرة شرهاً، ظل لسنوات وسنوات يواظب على تعلمها وفهمها، قبل أن يصمها جميعاً، بكل كُتَّابها ومحلليها، حتى أسانيدها، أراد فِهم طبيعة هذا الرجل العظيم، الذي نشأ في تلك البيئة الصحراوية القاحلة المكان، الغليظة البشر المنغمسين في جاهلية الحيوانات، بل إن الحيوانات، لا تعيش في جاهلية؛ حيث إن أفعالهم دليل على فطرتهم التي خلقهم الله بها، أما أولئك البشر أو المتصفون بتلك الصفة، الذين مَنَّ اللهُ عليهم بالعقل، فألغوه، والقلب فأغلقوه، والبصر فأعموه، والفم فصموه، استطاعوا وبجدارة أن يكونوا بيئة مماثلة لبيئة الحيوانات، بل أضل.

ذات مرة دخلت إلى حجرته الهادئة، والمرتبة بطريقة مبالغ فيها، تشعر وكأنك في متحف شديد التنظيم، ابتسم حين رآني، ثم ضمني إلى صدره الحنون، فقلت في نفسي متسائلة:

- لا أعلم إن لم يكن هذا الحضن المشع بكل ألوان الحنان والاهتمام موجوداً في حياتي، ماذا كنت أفعل؟

ذلك الحضن الذي أغناني عن كل ما سواه، لم أكن يوماً أحتاج إلى حبيب يضمني إليه ليحتويني، أو يُمسك يدي ليطمئني، أو يخرج معي ليسرق قلبي برومانسية مزيفة، لا حياة فيها سوى الألم والخداع ينتظراني عندما أُفرغ كل عواطفي لأي إنسان، وبالفعل سأتحلى بالغباء الكامل، لأجازف وأعلق قلبي، الذي أن انكسر فقد تضيع معه حياتي، بشخص من المحتمل أن يكون زوجي.

لقد أعطاني محمد كل ما تحتاجه الأنثى من حبٍ واهتمام، شاركته كل تفاصيل حياتي وشاركني كل تفصيلة في حياته، مهما صغر حجمها، ومنع عني كل ما قد يجعل قلبي ضعيفاً أمام رجل.

إن المشكلة الأساسية التي تقابل كل فتاة منا هي خيالها، نعم خيالها الطموح إلى أبعد مدي دون النظر إلى واقع الحياة، ذلك الخيال الذي تكونه من أي مشهد تقع عليه عيناها في كل مكان، مثل الجامعة والأفلام والسوشيال ميديا، فتحاول جاهدة، وباستماتة تكوين تلك الصورة، وإنشاء ذلك العالم الخيالي في عقلها، لتنزل بقلبها باحثة عنه في عالم الواقع، بحثاً حثيثاً، ولكنها حين تفعل ذلك، فكأنما تبحث عن حلم جميل، بين آلاف كوابيس التي تحكم الواقع.

- لماذا تقرأ كل هذه الكتب في السيرة النبوية الشريفة؟؟

بادرتُه بهذا السؤال في لهجة تخللها الاستغراب.

ابتسم محمد ابتسامة رقيقة أعلمها جيداً حين يحاول أن يبسط لي شيئاً، كي يستوعبه عقلي، ثم قال:

- أيتها الشقية، ألا تعلمين أن هذا تخصص دراستي؟

فقلت، وكأني انتصرت عليه:

- ولكنك أنهيت دراستك منذ عام، فلماذا تقرأ الآن؟

بهدوء شديد كعادته، اعتدل محمد في جلسته، وأغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، وكأنه يستعد للبوح بأشياء كثيرة تؤرق فكره وتشغل باله، ثم أفرغ جوفه من الهواء بتنهيدةٍ قويةٍ، تنم عن ثقل ما يحمله، ثم قال:

يا أُختي يا حبيبتي، إن ذلك الشخص الذي أقرأ عنه، لم يكن شخصياً عادياً، بل إن ذلك الشخص باختصار استطاع في سنوات قلائل أن يغير خريطة الجزيرة العربية، لا، بل خريطة الكون كله، ليس ذلك فقط، بل غير طباع البشرية واهتماماتها وتطلعاتها. في سنوات معدودة بَدَّل وغيَّر قيماً خاطئة غُرست في القلوب والعقول لقرون، حتى أضحت من المُسَلَّمات، حقق نجاحاً ساحقاً في عالم الإنسانية، عجز الآلاف عن تحقيقه من قبل، ولن يأتي بعده ليحقق ولو جزءاً صغير مما حققه.

لقد حفظه الله، منذ أن كان نطفة حتى ولد وبعث، ثم جاهد وأسس دولة، حاول الكثيرون قبله السبق في تأسيسها، مثل أفلاطون ومدينته الفاضلة التي لا أساس لها من الصحة بين عالم البشر، والإسكندر المقدوني، وفتوحاته الشاسعة، التي انحدرت سريعاً بعد موته، ولا يمكن أن ننسى دولتي الفرس والروم، اللتين اضمحل نورهما أمام التوهج الإسلامي.

ولكثرة وأهمية ما حققه، افترى عليه الكاذبون، وتقوَّل عليه المستشرقون، فحرَّفوا كثيراً في سيرته، وأضافوا وحذفوا أجزاءً تجعل البشر قليلي العلم، وضعيفي الإيمان يصدقونها، لذلك يا أختي أقوم بدراسة كل تلك الكتب، لأُعمل عقلي فيها، وأفهم كل شيء، كي لا أشعر بالاحتياج، أو فقر معلوماتي، فيأتي شخص تافه ضال، يغرس في عقلي أموراً لم تكن موجودةً، كي أصدق أو أكذب شيئاً عن ذلك الشخص الذي أنشأ أول حضارة في تاريخ البشرية.

قاطعته في سرعة بالغة، وأنفاس مضطربة، ولهجة متسارعة فقلت:

- أول حضارة في تاريخ البشرية؟؟!!، ماذا تقول؟ ألم يكن قد سبقته حضارات كثيرة، مثل اليونانية، والإغريقية، والبابلية، والآشورية، والفرعونية المصرية، وغيرها من الحضارات؟

وكيف يحدث كل هذا، ولم يعمر هذا النبي الصحراء الواسعة، ولم يترك أثراً واحداً لمعالم معمارية فاخرة كالتي تركتها تلك الحضارات السابقة؟

بابتسامة مازحةٍ تشوبها بعض السخرية قال:

- كل من ذكرتهم، لم يكونوا سوى جزء صغير جداً من مفهوم الحضارة.

تملكت الدهشة كل قسمات وجهي الصغير، وجحظت عيناي حتى كادتا أن تخرجا من محجريهما، لشعوري بالصدمة، وأنني على أعتاب الدخول إلى عالم أخي.

السفينة ٤

ضوضاء قاتلة، وحركة قوية، واضطرابات تكاد تمزق الأموات قبل الأحياء، فتفتك بعقولهم، وتنهش صدورهم بضراوة، على مثل هذا استيقظ إياد من نومه، واستفاق من حلمه، الذي تمني استمراره مدى الحياة، فيكفي أنه بين أهله وعائلته، حتى لو كان ذلك حُلماً.

فكيف لمثل هذه الحياة أن تُعاش دون أمٍّ تمسح على رأسك، وتُربت على قلبك بيديها الحانيتين، وأب يحمل على عاتقه آلاف الأشياء، التي لا تعلم عنها شيئاً، ليخفف عنك ويعود بوجهه البشوش من عمله الشاق، كي يبث السعادة إلى روحك، وأخ بحبه لم يكلفك عناء البحث عن أصدقاء تشكو لهم الهموم، وتكشف لهم أسراراً قد ينشرونها في كل مكان، أخ يكون لك كل شيء، تشاركه كل تفاصيل حياتك، دون خجل أو مواراة.

بمرور الأيام، على متن السفينة، والتي أضحت كأعوام، أدرك إياد أن هذا الوقت هو موعد توزيع الطعام الذي يقوم به ذلك الشاب الصغير المبتسم دائماً، على عكس تلك الوجوه العابسة، وهذا ما لفت انتباه إياد وأليس منذ اليوم الأول، هذه الضحكة أنجبت في عقليهما أسئلة تتكاثر باستمرار دون رحمة.

من هذا الشخص؟؟ وما وظيفته؟؟ وهل هو مثل باقي أهل السفينة؟؟ أم يتجسس عليهم؟ ولكن لصالح من؟؟ وما الفائدة من ذلك؟؟ وعلي أي شيء يتجسس؟؟ وما هذه الابتسامة التي لا تفارق وجهه لحظة؟؟.

كان الشاب يحمل قِدراً متوسط الحجم، أسود، بالكاد يظهر لونه الحقيقي (الأبيض) على جنباته، وسط هذه العتمة من السواد القاتل، منذ اليوم الأول قام طاقم السفينة المتهالكة، والذي يمثله ذلك الشاب الصغير وحارسه الضخم، بتوزيع أطباق بلاستيكية صغيرة الحجم عليهم، وبالطبع لم يكن هناك غير كبشة (ملعقة كبيرة) واحدة على السفينة، يُغرف بها الطعام في أطباق الجوعى، وحامل الطعام يمر عليهم بابتسامته المستفزة المُريبة، ويغرف غَرفة واحدة، يُكَب نصفها على أرضية السفينة، ونصف النصف الباقي يعود مرة أخرى في الملعقة الكبيرة، لسرعة حامل الطعام في توزيعه للطعام، أما ما يتبقي ويستقر في قاع الطبق العفن، فهو طعام لا لون ولا شكل ولا رائحة له تدل على أنه شيء يُؤكل، ولكن وجه الشبه الوحيد بينهم وبين ما عرفوه من طعام، هو أنه يملأ البطون ويكفها عن التذمر، والسخط حيناً من الوقت.

حمل إياد الطعام في الطبق بين يديه، وحاول أن يزيل عنه الوساخات المزروعة على جنباته كنبات الحشيش ففشل، كان الطعام ساخناً جداً،

وكالعادة نشب الصراع وعلت الصرخات في المكان، في محاولة لنهب المزيد من الطعام الموجود بين أيدي الضعفاء.

المدير ٤

لم تمض ٤٨ ساعة، إلا وكانت تينا ماثلة بين يديه مثل عصفور عاد لعُشه بعد سنوات من التيه والضياع، ذهب لاستقبالها في مهبط طائرات فندقه الخاص، وكان الاستقبال حاراً جداً، ينم عن الانتظار الشديد والولع الجامح.

بادرها بكلامه المعسول قائلاً:

- أهلاً تينا..

ثم أضاف في حنان، متسائلاً:

أكلما مضى بكِ العمر تزدادين جمالاً؟ أم أنكِ شربتي إكسير الحياة، وأصبحتِ خالدة بجمالك، مُخلدة بجسدك؟

قطعت كلامه ضحكة خرجت من بين فكيها، علامة على انشراح صدرها بما يقول ثم قالت هي:

- كما أنت منذ سنين، لا أستطيع مقاومة عبق كلماتك الجميلة، وإحساسك المصبوغ بالرومانسية، لذلك أعشقك.

ذهبا لغرفته، وجلسا على الطاولة، وبدأ في تحضير كأسين، ووضع فيهما حبات صغيرة من الثلج، قال:

- إن الكلام لم يُخلق إلا لكِ، والابتسامة صُنعت من أجلكِ، أما السعادة فلن تسعد إلا معكِ، وأنا لا أكون كل شيء إلا عندما يصل شعاع عينيك إلى جسدي، فيُغشى عليه بين حضنيهما، ليخفق قلبي، وينطلق لساني، وتشع عواطفي التي لم تُخلق سوى لتدليلك يا قطتي.

أذابت كلماته عقل وقلب تينا، ولم تشعر بذاتها، إلا بعد ساعات مضت معه في سعادة بالغة.

اجتمعا الاثنان لتناول الغداء، والسعادة تغمرهما، وكأنهما في سن المراهقة، أو عروسان مازالا في عرسهما حديثاً، هي تطعمه مرة، وهو يردها إليها، لترتسم ابتسامات مُشرقة دافئة على وجهيهما.

- كيف حال شركتك تينا؟

بادرها ألونسو بسؤاله، بعد أن لاحظ بوادر ملل تهبط على جلستهما، التي طال أمدها دون جديد.

قالت في هدوء، وابتسامة ماكرة رُسمت على وجهها:

- ليست بأفضل من شركتك يا مدير.

فهم ما ترنو إليه، ولكنه قبض على دفة الحديث مرة أخرى، حين قال:

- ولكن شركتي تواجه مشكلة صغيرة، ومفتاحها بين هذه الأيدي الناعمة.

قال كلماته ثم قَبَّلَ يديها في رومانسية مفرطة، استطاعت أن تؤثر عليها بسهولة.

- **J25** أليس كذلك؟

لم يستغرب من معرفتها بتلك المعلومة السرية، فشركات الاتصالات في كل البلاد لديها ملايين المعلومات والأسرار التي تخص أعلى الجهات والمؤسسات في دول العالم، لعلها قد تستخدمها يوماً ما كسلاح مضاد، لتحقيق هدف أو درء ضرر عنها، فما بالك بشركة (تشينا)؟؟!!

قال والجدية ارتسمت على وجهه، ممزوجة بموجة من الغضب في طريقها للصعود على وجهه:

- بالفعل تينا، هذه أكبر مشكلة تؤرقني، ومستقبلي كله متوقف على حلها، وأنا مُتيقن أن المفتاح قابع في يديك الآن.

أنهي الجملة، ونظرات الاستعطاف تغتصب وجهه لعلها تلين، فهو يدرك أن تينا في العمل تختلف عن تينا في أي مكان آخر.

- وما المقابل إذن؟

قالتها وعلامات الجدية اقتحمت وجهها فجأة ليظهر عمرها الحقيقي عليه.

قال:

- كل ما تريدي فهو رهن شفتاك عندما تنطق بما تريد.

قالت:

- أُريد أن أفتح أسواقاً جديدة في إفريقيا للشركة؟

قال:

- عواصم إفريقيا كلها تنتظر شركاتك من الآن.

قالت:

- بترول الخليج أحتاجه، فصناعتنا تتطور بهمجية، ونحتاجه بشدة تفوق احتياج البشر للماء، البترول الموجود تحت أقدام رعاة الشاة الذين لا يقدرون قيمته الحقيقية.

ثم استأنفت الحديث بنظرات شاردة، وعقل واعٍ، ونفس مملوء بكل ألوان الحقد الموجود على وجه الأرض، فقالت:

- أتدري يا ألونسو، إن أولئك الهمج الذين يملكون البترول، بإمكانهم أن يتحكموا، ويحكموا العالم أجمع إن اتحدوا، ووحدوا قوتهم، واتخذوا قراراً واحداً فقط لا غير، هو إغلاق صنبور البترول عنا، هنا سوف يقل مستوى الرفاهية في بلادنا، وتظهر البطالة بأبشع صورها، وتحدث تظاهرات بصور سلمية بدايةً، ثم تتفاقم ويظهر التبرم والسخط من شعوبنا على الحكومات، فتضطر الحكومة إلى الرد عليهم، وردعهم، فتعود الثورات من جديد، ونعود للوراء، حتى نصل إلى العصور الوسطى في أوروبا.

- لذلك ألونسو يجب أن نفعل كل ما بوسعنا، لنحول بينهم وبين وحدتهم، فنجعلهم في خلاف دائم، وشقاق مستمر، فتارة نهادن دولة على حساب أخرى، ونوقظ الخلافات الطائفية والقبلية القديمة، ونعود بهم إلى عصور الجاهلية، ونغزوهم فكرياً وثقافياً، ونوهمهم بأنهم الأدنى مهما وصولوا، وأننا الهدف الذي يجب أن ينظروا إليه ويسعوا إلى تحقيقه، كي يواكبوا طور التقدم والتحضر، ونوهمهم أيضاً بأن ما عدانا هو التخلف والرجعية، ونحتلهم اقتصادياً بمعوناتنا، ومن خلال مؤسساتنا المالية التي تُغرق بلادهم في الديون، فلا يستطيعون الخروج من قبضتنا، إلا والعقوبات في انتظارهم، نُجند الحكومات لتُقهر الشعوب بقوة السلاح، فلا يُمكنهم أن يثوروا، وإلا كان السجن لهم مصيراً، والرصاص لهم بالمرصاد.

سكتت وكأنها تتذكر شيئاً تجاهد كثيراً لعدم تذكره، فقالت ودموع الغضب تنهش عينيها:

- ذات يوم من عام ١٩٧٣ أتت جدتي إلى أبي وأخبرته أن الحرب قد انتهت قبل أن تبدأ وأننا سننهزم لا مراء في ذلك.

فقال أبي في محاولة للفهم:

- ماذا حدث؟ أخبريني سريعاً!!.

- قالت جدتي، وسيل من الدموع ينهمر من مقلتيها:

- إن المدعو محمد أنور السادات، يتنقل بين الدول العربية، يحاول أن يوحدهم ضدنا، بل إنه وحدهم بالفعل، واتخذ كثير من هذه الدول قراراً بمنع تصدير البترول إلى الدول المشاركة في الحرب، ومن يفعل ذلك تعد خيانة عظمى، كما أمدوه بالسلاح والعتاد، وأيضاً بالجنود، ومن لم يستطع منهم، أرسل له الأموال.

ظهر الهلع على عين أبي، فقال لها:

يبدو أنه يتوجب علينا الانتهاء من الحرب سريعاً، حتى لا ينفد منا مخزون البترول.

وجاءت الحرب بهزيمة ساحقة لنا لم يكونوا يحلمون بذلك، بعدها قررت الانتقام، ولكن على طريقتي الخاصة.

قال:

- عُلِمَ ويُنَفَّذُ، لمدة خمس سنوات سيصلك يومياً ١٠٠ برميل.

قالت مُسرعةً:

- ٥٠٠ برميل.

قال:

- لا،، ٢٠٠ برميل يومياً.

قالت في حزم:

- لا، بل٤٠٠ برميل يومياً، وسيكون j٢٥ بين يديك خلال ٣٠ دقيقة من الآن.

قالت كلماتها، وهي تعلم أنها ضغطت على ذلك الوتر شديد الحساسية لديه، فهو يحتاجه بشدة كي ينقذ ما أهدر من عمره سنيناً للولوج إليه.

قال لها:- كيف يحدث ذلك؟؟

قالت بثقة بالغة، وهي تُسند ظهرها للوراء ببطء:

- بصمة الظل.

الأندلس ٣

استمرا الحكم ومحمد في جلسات القراءة مُدة طويلة، حتى بدأت الفكرة في الانتشار بين الشباب، والمجموعة أصبحت اثنتين ثم ثلاث، وكل يوم في زيادة، ومع كثرة وتزايد المُتعلمين، تكونت مجموعات كبيرة، فاضطرا لجلب من يساعدهما في تعليم كل هؤلاء، والقراءة عليهم، لتعلو وتُرفع أمجاد الأمة من جديد.

كان يتم تعليم بعض الأفراد، ومن يكتشفوا أنه يمتلك صفات فريدة منهم، يتم وضعه في مجموعة خاصة لتعليم مهارات التعليم والتدريس للأفراد، بعد ذلك يتم عمل اختبارات صعبة لتصفيتهم، لعظم الدور الذي سيقومون به، وهو تعليم أبناء الأمة، لإعادة صياغة الأمجاد من جديد، فلابد أن يكونوا على قدر المسئولية التي سيحملونها على عاتقهم، هذا من ناحية المعلم، أما من ناحية الحكم ومحمد، ومن على شاكلتهما، الذين يختارون ويعينون المعلمين، فمن الأمانة بمكان أن يتم الاختيار بناء على تقوى الله، ثم أصحاب العلم، الذين يساعدون بقدراتهم ومجهوداتهم، وليس بناء على صلة القرابة، أو الذي يدفع مالاً أكثر، وخلافه من الطرق التي أتت ثمارها الفاسدة، التي تتغذى عليها منذ سنين وترعرعت في جسد أمتنا المتهالكة،

لتجعله كقشة تذروها الرياح، فكانت النتيجة شعوباً بلا هوية، وأموالاً بلا إدارة، وبذخاً كاذباً، وقوة وهمية، وشباباً ضالاً تائهاً بلا هدف.

لم يعد القصر الكبير الواسع يسع كل هذه الأعداد، لذا قرر الخليفة عبد الرحمن الناصر، بعدما رأى في فعل ولديه الصلاح والفلاح، قرر إنشاء دور خاصة للقراءة، وهي مختلفة عن المكتبات، حيث إن المكتبات جزء صغير من هذه الدور الجديدة، والتي عرفت بدور (القراءة).

ففي دور القراءة يقوم أحد المُعلمين، ذي اللغة العربية الفصيحة الجيدة وبصوت متوسط، في قاعة مليئة بالمقاعد التي يجلس عليها المستمعون، فيقرأ لهم كتباً مهمة، تغرس في عقولهم العقائد والقيم، التي رفعت المجد قبل ذاك، ثم يتناقشون فيها، لتنبت أفكاراً أخرى من ثنايا الأسطر المقروءة، ولا يعني ذلك أنهم لا يستطيعون القراءة، ولكن هي عملية لتسهيل المعرفة، فقد تجد شخصاً يستطيع أن يقرأ جيداً، لكن الملل يتسرب إليه حتى يتملكه فيترك الكتاب من بين يديه، أو شخصياً يتيه بين أسطر الكتاب فيغلقه، وغيرها من الأسباب التشجيعية، التي تجعلهم يأتون إلى تلك المقاعد ويجلسون بالساعات.

مات الخليفة عبد الرحمن الناصر، ثم تولى محمد الحكم زمام الأمور في كل شيء، ووكَّل أشخاصاً غيره لدور القراءة، حتى يتفرغ لإدارة شئون

المسلمين، سار كل شيء بأفضل حال، لم تقع مشكلات تُذكر في كل تلك المدة، ثم جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.

الأهواز٢

انتهى المدرس من تلك الفقرة بسرعة كبيرة، دون أن يأخذ نفساً واحداً، بدا وكأنه حاز لتوه على قسط من الشجاعة، ليكمل ما عزم على قوله، ثواني حتى استأنف الحديث قائلاً:

- يعود تاريخ بلادنا إلى عام ٤٠٠٠ ق.م، ولكننا سنذهب تحديداً إلى عام ٥٣٩ ق.م، حين قام قورش الإخميني بغزو الأهواز بجيش مهول، لا قبل لعرب هذه المنطقة به، وشن حملات قتل وحرق وسجن كل من وقف في وجهه، أو حاول عرقلته في تحقيق ما كان يرنو إليه من السيطرة على تلك البقعة، هجم على العرب، وعبر الخليج حتى وصل القطيف، فأقام المذابح الهائلة، التي تقشعر لها الأبدان، ثم توغل إلى جزيرة العرب، دون أي مقاومة، كان العرب في تلك الفترة كعادتهم، في تفرق وتشرذم، لم يقووا على مواجهة الفرس بقوتهم الجبارة وأعدادهم الكثيرة، ولكن في محاولة فريدة، اتحدت بعض القبائل، ووحدوا قوتهم وأسلحتهم، فاستطاعوا الانتصار عليهم في معركة ذي قار.

في عام ٢٤١ ق.م جددت الأسرة الساسانية محاولاتها للسيطرة على هذا الإقليم بقوة السلاح، فقامت الثورات للدفاع عن الأرض من ظلم الفرس، ونشبت حرب عصابات بينهم وبين أصحاب الأرض، مجموعة من

الأشخاص يحملون أسلحة نارية، ملثمي الوجوه، يراقبون جنود الفرس وتجمعاتهم، يظهرون فجأة، يهجمون عليهم هجمة واحدة، فيقتلون منهم ما يقتلون، ثم يكون الاختفاء ومحو كل أثر، ألحقت الجماعات المسلحة خسائر كبيرة بجيش الفرس، حتى اقتنعوا باستحالة السيطرة الكاملة على هذا الإقليم، فمنحتهم على مضض إمارات صغيرة، تتمتع بحكم ذاتي مقابل ضريبة سنوية تدفع لهم.

فكان عدد من القبائل هو من يدفع الضريبة، مثل أبوكي، وبني حنظلة وغيرهم، حتى آخرهم قبيلة المناذرة قبل الفتح الإسلامي، وظلت تحت الحكم الإسلامي منذ عام ٦٣٧ م حتى ١٢٥٨م.

الشريحة ٤

غرفة رمادية الجدران بلا نوافذ، الهواء بارد نسبياً، مع لسعة برد خفيفة تغزو جسدي، سرير حديدي، عليه مرتبة جميلة الملمس، وملاية بيضاء تفترشه، وأنا أفترش السرير برأس موضوعة على وسادة بنفس لون ملايته، مرتدياً ملابس بيضاء تماماً.

- أين أنا؟! وضعني عقلي أمام هذا السؤال مباشرة لأقف عاجزاً عن الإجابة.

- ما هذا المكان؟! زاد العجز عجزاً، ووصلت الحيرة لأعلى درجاتها.

شرعت في تذكر أي شيء، وبصعوبة بالغة استرقت من ذاكرتي بعض اللقطات (لاب توب، صورة، مسيو كال)، قمت بتركيب كل لقطة جوار الأخرى كلعبة "البازل"، فلم تظهر الصورة كاملة أمامي، بدت مشوهة لم أدرك منها شيئاً.

فُتح الباب، ليدخل منه رجلٌ عريض الصدر، قوى البنية، حليق الرأس، إلا من بعض الشعر على جنبات رأسه، مع لحية كبيرة، يرتدي زياً أسود، تقدم ناحيتي، وابتسامة عريضة مرسومة على وجهه بإتقان، اقترب منى، ثم مد يده قائلاً:

- أهلا بكَ في بيتكَ مسيو جوزيف، معك مستر هنري، نائب مدير المركز العالي للتأهيل البشري. دون توقف أكمل:

- في المركز العالي هنا، نحن نقوم بتدريب كل شخص على مهاراته المختلفة في حال علمه بها كما في حالتك، أما في حالات أخرى، نبدأ معه من الصفر، حتى نجعله يكتشف مهاراته، ونضعه في مكانه المناسب، فننميها له، ويتقدم هو، وتتقدم بلده العظيمة إنجلترا.

وبخبث تسائل:

- أيهما تحب أكثر مسيو جوزيف إنجلترا أم البرتغال؟

حاولت استيعاب كل ما قال، فتزاحمت الأسئلة في عقلي، حتى كاد أن يقف أو يُجَن، ولكني أجبته بصوت مهزوز، وبعقل مذبذب:

- لقد وُلدت في البرتغال، وأحبها لأنها أمي التي ولدتني، أما إنجلترا فهي أمي التي ربتني وشجعتني، وحققت لي كل المجد، الذي وقفت على أعتابه.

قال هنري، وضحكة مُستفزة تكسو وجهه:

- كنت أعلم أنك شديد الذكاء مسيو جوزيف، هكذا قالوا عنك، والآن يجب عليك أن ترتاح فأمامك أشياء كثيرة لم تكن تعلم عنها شيئاً في

عالم البرمجة، نصف ساعة، وستكون تلميذاً أمام الدكتورة (تريزا)، قالها ثم رحل.

مرت ثلاثون دقيقة حتى دخلت عليّ الدكتورة تريزا حاملة في يديها جهازي "لاب توب" صغيرين، وضعتهما على الطاولة في نصف الغرفة، ووضعت أمام كل جهاز كرسياً، وبلطف طلبت مني أن أقوم باختراق "اللاب توب" الخاص بها.

عملية اختراق بسيطة لن تستغرق دقائق، مسكت "اللاب توب" في تثاقل، وشرعت في اختراق جهازها، وبسهولة بالغة كانت كل معلوماتها أمامي، وبزهو المنتصر أدرت جهازي ناحيتها، كي تتمكن من رؤية نجاح عملية الاختراق، ولكن بعد عشر ثواني أصدر "اللاب توب" الموجود أمامي صوتاً، فأدرته مرة أخرى ناحيتي، فوجدته يخبرني أنه يتم حذف جميع البيانات الموجودة عليه الآن، ويرسلها إلى الجهاز المُخترق، فصعقت صاعقة، لم تر الأرض مثلها، وتجمدتْ أوصالي وأفكاري، وكاد جلدي يتساقط من قيظ حرارة وجهي شديد الأحمرار.

- الدرس الأول:

- عليك ألا تستهتر بخصمك أو بصغر العملية، التي ستقوم بها، وإن كانت عملية اختراق بسيطة.

تعجبت بقوة!!، كيف أقع في مثل هذا الخطأ الصغير، الذي قد يكلفني حياتي؟

أدركت أنني أمام عقلية فذة، يجب أن أتعلم منها كل ما أريد فهي الآن قدوتي ومعلمتي.

مرت أيام لا أعلم عددها، تركت نفسي لتريزا، فالألقاب حُذفت، كما بدأت أشعر أن حياتي الماضية جارية الحذف، كما تم حذف ما هو أقدم منها، تعلمت منها الكثير والكثير، والحق أنني شعرت منها بحنان افتقدته كثيراً.

تعرفت على عددٍ ممن يقطنون المركز، وأدركت أنهم قد أتوا في ذات يوم مجيئي، وما أكد لي ذلك أن زيَّنَا موحدٌ، على عكس آخرين، يرتدون زياً موحداً آخر، بلون أخضر، وهم الأقدم منا، وغيرهم من المجموعات بألوان مختلفة، أما أقدم الأقدمين فهم أصحاب الزي الأسود، هؤلاء هم من مكنتهم مهاراتهم من حجز مكان دائم في هذا المركز، كالدكتورة تريزا ومستر هنري.

اليوم أخبرنا مستر هنري أن هناك شخصاً من مجموعتي، مكنته مؤهلاته من العبور للمجموعة الأقدم منا بلونها الأخضر، وما أثار سخطي أن ذلك الشخص كان في نفس مجالي، وأنا أدرك أن مؤهلاتي ومهاراتي أفضل منه بكثير بشهادة الدكتورة تريزا وزملائي أيضاً، هذا هو ما جعل الريبة والشك

يعششان بأعماقي، وأحسست بأن هناك أموراً تجري في المركز، لا يعلمها الكثير، وهنا تذكرت سبب مجيئي أو اختطافي، فأقسمت على معرفتها بنفسي.

****

المركز كان شديد الحراسة، على الرغم من عدم وجود حراس، فكل الأبواب توصد بعد الانتهاء من التدريب اليومي، ولا تُفتح إلا ببصمة الإصبع لأشخاص محددين، مجموعة منهم يمكنها فتح بعض الأبواب، ولا يمكنها فتح أبواب أخرى، عدا مستر هنري فهو صاحب البصمة الأهم في المركز، لذا قررت الحصول عليها.

في كل أسبوع مستر هنري يقوم بعمل سباق للجري لجميع المجموعات في المركز، من يفوز بهذا السباق، يحصل على ميدالية، كجائزة رمزية على تفوقه، ويتم تكريم باقي المجموعة لأجله، لذا اتفقت مع صديقتي البولندية (جين)- فهي الأسرع والأمهر فينا- على أننا يجب أن نفوز بهذا السباق، وقام باقي المجموعة بتشجيعها على أثر كلامي معها، فتشجعت وشاركت في السباق، وفزنا بالمركز لأول، وتم تكريمنا وسط تصفيق الجميع.

طلبت من جين الميدالية، لأحتفظ بها فرحاً بهذا الإنجاز، دون تردد أعطتها لي، فأنا صاحب الفكرة، حين غلَّف الليل المكان، أحضرت الميدالية،

وحاولت إخراج بصمات مستر هنري من عليها، فهو من سلمها للفائز، فوضعت على الميدالية لاصقاً شفافاً، ثم رفعتها مرة أخرى، ووضعتها أمام المصباح مباشرة، فلم أجد بصمة!!، فوضعت اللاصق مرة أخرى، وقربته من المصباح، فلم أجد بصمة أيضاً!!، لكني لم أر مستر هنري يرتدى قفازا شفافاً. وأدركت حينها قوة الأمن، والحيطة الموجودة بالمكان، ولكني لم أستسلم.

ظللت طوال الليل مستيقظاً، أفكر في طريقة لسرقة بصمة مستر هنري، وجاء الإلهام بسرعة، لم أكن أتخيلها.

حين فُتح الباب صباحاً، لم أكن نائماً، فذهب الحارس، وقمت من مكاني مسرعاً، ووضعت شيئاً شفافاً مثل اللاصق على مكان البصمة من خارج الباب، شيء لا يمكن الانتباه له، لشدة رقته، ولكنه سيحتفظ بالبصمة، ويمنحها لي في اليوم التالي مجاناً.

مضى اليوم بطيئاً جداً، ولكنه مضى، ودخلت الغرفة في تباطؤ بعد أن اصطحبني مستر هنري إليها، ووضع يده على مكان البصمة، فأغلقها كالعادة، كما يغلق كل الغرف بنفسه لمزيد من الأمان.

لم أستطع مقاومة النوم، فنمت هذه المرة، ولكني استيقظت قبل أن تفتح الغرفة، وجال في عقلي أن من سيفتح الباب سيمحو أثر بصمة مستر هنري، فظللت أدعو الله أن يأتي هو ليفتح الباب صباحاً.

دقائق مضت كشهور وفتح الباب، ولكنه لم يكن مستر هنري، ذهبت تجاه الباب، فنظرت مكان البصمة فلم أجد ما وضعت، فسرى الفزع في أوصالي وشعرت أنهم علموا فعلتي، وأخذ عقلي يزرع مشاهد تعذيب خيالية، قد يتعرض لها جسدي بعد قليل، فتزايدت نبضات قلبي، وارتعشت أطرافي، فطأطأت رأسي أرضاً بعد أن علمت أني هالك لا محال، وعندما وصلت عيني للأرض، وجدت ما يشبه اللاصق ملقى عليها، فتنهدت تنهيدة أفرغت بها ما في جوفي من أوكسجين، يبدو أنها التصقت بإصبع مستر هنري لحظة وضع يده على بصمة الباب، ثم سقطت على الأرض سريعاً.

أخذتها بخفة ووضعتها أمام المصباح، فوجدت البصمة، فحمدت الله كثيراً، خرجت من غرفتي وقضيت يومي بالخارج، ثم دخلت الغرفة في وقتي المحدد، وبدأت العمل، وقبل منتصف الليل، كنت قد قلدت بصمة مسيو هنري، ومن الطبيعي أن أقوم بالخطوة التالية، ألا وهي تجربة البصمة، بلهفةٍ قمت من مكاني وقادني عقلي قبل قدمي مباشرة ناحية باب غرفتي،

فألصقت البصمة على العقلة الأولى من سبابتي، ووضعتها على المكان المخصص لفتح الباب.

فُتح الباب فجأة، وتعلقت عيني به بشدة، وارتعشت يدي لتسقط دفتري الصغير.

حين دخلت الممرضة التي لازلت لا أعلم اسمها حتى الآن، دخلت والابتسامة تعلو وجهها ومُعلق في يديها بعض الطعام، ما إن وصلت رائحته إلى أنفي سال اللعاب من فمي، وبدأت معدتي تصدر حشرجات لتذكرني أني أهملتها منذ زمن، وهي الآن تأن وجعاً ومصدر راحتها الوحيد هو ما يقبع داخل الحقيبة الصغيرة المتدلية من أيدي ممرضتي ومنقذتي.

لم أستطع أن أبعد الدفتر عني، فوضعته بجواري، وقمت باتجاه الممرضة، فقلت:

- أنا لم أعرف اسمك حتى الآن.

قالت ضاحكة:

- أنا ماري، يمكنك أن تناديني بماري.

انشغلت في إعداد الطعام، وهممت بمساعدتها، فرفضت ولكني أصررت، شعرت براحة تغمر قلبي بعدما اكتشفت جزءًا، وإن كان صغيراً من حياتي،

انتهينا من إعداد الطعام، فوضعته ماري على طاولة في منتصف الشقة، وبدأنا في التهامه، بنهمٍ قاتل لتهدأ معدتي، وتكف عن الشكوى والتذمر.

بعدها سرت تجاه المطبخ من جديد، لأعد فنجاناً من القهوة، بعد أن أرشدتني ماري إلى مكانها، سردت ماري لي ما وقع على إذنيها أثناء إحضار الطعام، وأن كل ما يشغل الرأي العام هو قضية ذلك الشاب الهارب، والممرضة الغامضة التي ساعدته، نبرة صوتها المرعوب استطاعت بث كل ما تشعر به إليّ حتى دبَّ الخوف في قلبي، ولكن لم يكن أمامي خيارٌ آخر، كي أثبت براءتي وأنا الآن على الطريق السليم.

شعرت بحنين جارف تجاه دفتري، وكأني تركته منذ قرن، فتوجهت إليه دون كلمة أخرى مع ماري، وغصت في القراءة من جديد.

ما إن لامست سبابتي مكان البصمة، حتى فُتح الباب، وهب قلبي فرحاً يشوبه خوف، وتساءلت:

- وماذا بعد؟

بتلقائية بدأت قدمي السير إلى مكان بعيد عما يُجلسونا فيه، وجدت ممرات عديدة، كل ممر ينتهي بباب موصد، كلما صادفني بابٌ، وضعت سبابتي ليُفتح بسلاسة، لم أجد أياً من أفراد الأمن بتاتاً، قد يكون لاطمئنانهم أنه لا

يستطيع أحد أن يخرج من غرفته الموصدة عليه ليلاً، والتي يوجد مفتاحها في أيدي أشخاص قلة.

دلفت إلى ممرٍ طويل، على جانبيه غرف كثيرة، أبوابها من الزجاج الشفاف، سرت بتباطؤ للأمام، فوقعت عيناي على ما يشبه غرفة عمليات، فدخلت ووجدت سريراً مُحاطاً بأجهزة كثيرة، وعلى جانب الغرفة الأيمن، وُضع حاسوب أو ما يشبهه، والغريب أن شاشته عُلقت أعلى السرير فوق الرأس مباشرة.

ضغطتُ على زر التشغيل، حتى رأيت صوراً لأشخاص معنا في المركز، أشخاص في مجموعتي وأشخاص من مجموعات أخرى، كل مجموعة وضعت مع بعضها البعض في ملف خاص بها، قمت بفتح كل الملفات، لأجد صوراً لأشخاص آخرين كانوا معنا، أخبرنا مستر هنري أنهم قد صعدوا إلى مجموعات أعلي بسبب كفاءتهم ومهارتهم، أسفل كل صورة كُتبت بعض التفاصيل، لم أستوعب منها شيئاً، قرأتها محاولاً الاستيعاب والتفاصيل كانت كالتالي:

الاسم: مايكل بدرو.

فصيلة النجاح: إيA.

تاريخ العملية: .....

نسبة النجاح: ٨٠٪.

الأضرار الجانبية: رعشة خفيفة في الجسد.

الحالة العامة: مستقرة.

انتهيت من القراءة، محاولاً استيعاب المزيد، فعن أي عملية يتحدثون؟ ولمَ هي من الأساس؟.

انتقلت للصورة التالية، لعل عقلي يسعفني بمزيد من الفهم، من كل هذه التفاصيل، صببت تركيزي على الأضرار الجانبية والحالة العامة، لذلك أهملت عيني باقي التفاصيل، وانتبهت لها فقط.

الصورة التالية لفتاة رأيتها كثيراً، ولكن الأضرار الجانبية كانت كالتالي:

زيادة كهرباء في المخ، نتيجة لعدم التحمل، وحالتها العامة سيئة للغاية، فحجزت للعلاج في مستشفى المركز.

تنقلت بين العديد من الصور، فوجدت حالات كثيرة ماتت، وحالات فقدت بعض حواسها، وحالات طبيعية إلى حد ملائم، وحالات كان الشلل نصيبها، ولكن ما أفزعني حقا أني وجدت صورتي، وكتب أسفلها (التالي)، دق قلبي سريعاً، وبقوة، فانتفضت للوراء، وتركت جهاز الصور، وشُل عقلي تماماً.

انتقلت لحاسوب صغير يبرز من ركن منزو في يسار الغرفة، فتحته، والغريب أني لم أجد كلمة سر الدخول، أو حتى بصمة إصبع، أو صوت، وكأنهم على يقين كامل بأن لا أحد سيتمكن من الولوج إلى هنا غير المصرح لهم، دون جهد وجدت ملفاً كُتب أسفله "تدريبات"، وآخر "برمجة"، وآخر "عمليات"، وأسفل كل ذلك، وجدت ملفاً كُتب عليه "سري للغاية"، حاولت فتحه ولكنه مؤمَّن للغاية فتركته، شرعت في فتح ملف العمليات، كي أفهم ما يحدث في تلك الغرفة، ووجدت فيه ما لم أكن أتوقعه.

كل شخص من الأشخاص الذين رأيت صورهم، يرتدي زي العمليات، نائم على سرير في ثبات رهيب، ومن ثم يأتي بعض الأشخاص، مقنعي الوجوه، يبدو أنهم هم من يقوموا بإجراء بالعمليات.

العمليات متشابهة إلى حد كبير، يأتي الشخص مرتدياً زي المرضى، ثم ينام على السرير، فيتم تخديره كلياً، وعندما يسير المخدر في جسده، كما يسير الماء في مجراه، ويغيب عن الوعي، يقومون بقلبه، ليصبح بطنه للأسفل، وظهره للأعلى، ويأتي الطبيب بمشرط صغير، فيفتح فتحة صغيرة في أسفل مؤخرة الرأس، فيناوله أحدهم شيئاً صغيراً، فيضعه بداخل الفتحة، لحظات وتظهر بعض المؤشرات المبدئية على جهاز الصور، وحسب كل حالة يقوم الطبيب

بوضع يده في المكان المفتوح، وينظر للمؤشرات على الشاشة من جديد، حتى يرى حيثيات محددة، فيغلق الطبيب الفتحة، ويقومون بإعادة الشخص، لينام على ظهره من جديد.

يقوم التسجيل بتصوير المريض، وتسجيل كل لحظة، منذ تخدير الشخص حتى الإفاقة، فمنهم من تبدأ أطرافه بالارتعاش، ومنهم من يرتعش كل جسده بقوة، فيجتمع حوله الأطباء لتثبيته، ومنهم من يُخرج من جانب فمه سائلاً وتتبعه روحه، فيصير جثة هامدة، يجب التخلص منها، ومنهم من يكون طبيعياً بصورة كبيرة، وهنا يكون العمل قد نجح، فيهنئون بعضهم البعض، وتظهر ابتسامات النصر على وجوههم وأفعالهم، ويغلق التسجيل.

أرحت رأسي للخلف من ثقل ما علمته ورأيته من تسجيلات، ولكن ما الذي يخططون له بعد كل ذلك؟ لم أتوصل لأي إجابة بالطبع.

خرجت من الملف الخاص بمجموعتي، والفزع يحتويني، وتفحصت الملفات مرة أخرى، فرصدت عيني واحداً يدعى الشريحة، فتحته، فلم أجد سوى صورة صغيرة لشريحة في غاية الرقة، تبلغ نصف عقلة الإصبع الصغير، وأسفل الصورة معلومات، كُتبت بطريقة غريبة، ولغة حروفها إنجليزية، ولكن لم أستطع فهمها، لمعت عيني فجأة عندما أخبرتني أن عقلي رأي مثل هذه الصورة ولكن أين؟ بحثت داخل أركان عقلي، ولكنه لم

يدلني، تجوَّلت في الغرفة مفكراً، فلمحت دولاباً زجاجياً، رُصَّت به شرائح مثل التي رأيت في الصورة، كما يبدو أيضاً أنها نفس الشيء الذي يضعه الطبيب في مؤخرة رأس الأشخاص.

للدولاب رفوف كثيرة على نفس عدد مجموعات المركز، رُتبت بترتيب محدد، وبسهولة وجدت الركن الخاص بمجموعتي والملون باللون الأبيض، وأسفل هذه المجموعات، وجدت رفاً بلا لون شفاف تماماً استنتجت أنها شرائح فارغة، على عكس المخصصة لنا، تذكرت أن دوري هو القادم في العمليات، فبدلت شريحتي بشريحة فارغة، وأغلقت الدولاب كما كان، في تلك اللحظة شعرت بأن معلوماتي زادت وزاد الحمل معها أيضاً، وصعقت عندما صور لي عقلي المرهق جسدي وهو ممدد على السرير، ويلتف حولي الأطباء، ليشجوا فتحة في مؤخرة رأسي، ويضعوا تلك الشريحة بها، ذهبت مسرعاً، محاولاً فتح الملف السري، ضغطت عليه، ولكنه لم يفتح، حاولت استخدام ما لدي من أساليب، فاكتشفت أني مهما بلغت من العلم، فهناك من هو أعلم مني.

حاولت مرات، ولكن بلا فائدة، وبرد فعل لا دخل لي به، وجدت نفسي أضرب شاشة الحاسوب بيدي فأصدرت صوتاً، دقيقة كانت كافية لأسمع صوت أقدام تدب على الأرض.

الياسمين ٣

بعد الانتهاء من كل هذا، وجدت فتيات في مثل سني أو يزيد قليلاً، وضعونا في غرفة كبيرة، لكل منا سريره الخاص به، وعلمونا بعض الأناشيد والترتيلات، وكل فترة كانت تنضم إلينا فتيات أخريات، حتى امتلأت غرفتنا، ولم تعد تحتمل المزيد بتاتاً، فتم نقل بعضنا إلى غرف أخرى، وكنت من بين من تم نقلهن.

يوماً بعد يوم، اعتدت العيش في ذلك المكان، لأحفظ كل تفصيلة فيه، وأوقات الصلوات والترتيلات، والأشخاص الذين يزورون الكنيسة، خاصة في أيام الآحاد، ولكن أكثر شيء لم أستطع نسيانه هو تاريخ ذلك اليوم الذي تأتي فيه فتيات إلينا، كما جئنا نحن من قبل.

لقد أخبرونا منذ أسبوع أن هناك دفعة جديدة قادمة إلينا، واليوم هو موعد قدومهن ويجب علينا أن نحسن استضافتهن، كما أحسن استضافتنا من قبل، دخل الوفد الجديد بحالته الرثة والرأس المنكسة والملابس المتقطعة، ولكن القليل منهن من كن ذوات منظر حسن.

في تلك اللحظة، وعندما يتكرر هذا الموقف، تقفز في رأسي كل ذكرياتي الأليمة، التي بدأت منذ اغتصاب أمي وقتل أبي، ثم العربات وهي تتخبط

بنا، وتلك الغرفة المتوحشة، إلى أن وصلت ذلك المكان، لم أعد أملك الاستطاعة لأتخيل كيف حدث ذلك؟؟ ومتى حدث؟ ولم حدث؟

في الليلة السابقة لذلك اليوم، تهبط الكوابيس على رأسي، وأرى أشباحاً تتطاير، ومشاهد كثيرة تتصدر أحلامي، ولكن مشهداً واحداً هو الذي يعتلي الصدارة، ذلك الوحش وهو يغتصب أمي، ونظرة الانكسار التي كست وجه أبي، لن أستطيع يوماً أن أجد تلك الحروف، التي تكوِّن كلماتٍ قد تعبِّر حتى عن جزء صغير مما رأيته في عين أبي من الذل والقهر، وكل معاني الهزيمة والألم.

وقفنا في صفٍ طويلٍ بملابس مهندمة، غطاها البياض من كل جوانبها، لتبدو هيئتنا كملائكة، ولكن بلا أجنحة، برفق وُضعت الشموع بين أيدينا لاستقبال الوفد الجديد، رُتلت الأناشيد في هدوء لبث الطمأنينة في قلوب القادمات، انتُزع الرعب من صدورهن بعد أن دلفن من الباب الكبير بتردد يُرى من أعينهن وبقايا خوف ظهر في ارتعاش أجسادهن، وقطع من الطعام في أيديهن.

وفى يوم من الأيام، وجدت أختي كريمة مقبلة مع من أقبل، فلم تصدق عيني ما رأيت حتى أغشي عليَّ.

غبت عن العالم فترة لا أعلم مداها، وأتت كريمة إليَّ في منامي لتخبرني أنها بجواري، ولن تتركني مرة أخرى مهما كانت الظروف، للحق إنها تصغرني بعامين، ولكني دائماً أشعر أني مسئولة منها في كل شيء، كنت أدرك أنه حلم، فلم أرد الاستيقاظ منه، وظللت انظر إلى كريمة، حتى ضمتني إلى صدرها واحتوتني، كما كانت تفعل من قبل، استيقظت فجأة، لأجد كريمة تجاورني في الغرفة، كما كانت في الحُلم، وضعت كلتا يديها على خدي، وأخذت تداعبه بلطف، لتبث الطمأنينة بداخلي وتنشر الدفء في أعماقي.

حاولت النهوض، ولكن إشارة يديها منعتني من التحرك، فاستسلمت لها بسهولة، وبعد لحظات جاء الطعام، ووضع بين يدي كريمة، ثم شرعتْ في إطعامي، كما لو أني طفلة صغيرة في العام الثالث من عمرها، تخشى أن تمنح ملابسها قسطاً من طعامها.

أنهيت طعامي ببطء شديدٍ، ثم احتضنتها بشدة، فشعرت بطقطقة عظامها تدب في أذني، وبكيت كما لو أني لم أبكِ من قبل، بكيت حتى جفت الدموع من عيني، وشرع فمي بالحديث في كل تلك الأمور التي كانت عالقة في حلقي، ومكتومة في قلبي المكلوم، الذي هجمت عليه الشيخوخة مبكراً لتقتل كل ملامح الشباب فيه.

وحين انتهيت من طعامي، شعرت بالسكينة تغمر جسدي والراحة تروي روحي، والهدوء يسكن عقلي، أما كريمة، فبدت شاردة، وكأنها تغرق بجرح غائر في بئر حياتها.

- أخبريني يا كريمة، ماذا فعلوا معكِ عندما اختطفوكِ مني وأخرجوكِ من تلك الغرفة؟

قلتها بهدوءٍ حذرٍ، حتى لا أضغط على الجرح، فيزداد اشتعالاً، فلا نستطيع إطفاءه.

رُغم انهمار الدمع من عينيها، فإنها تحدثت دون توقف، وكأنها ترى المشهد أمامها في تلك اللحظة، فقالت:

- عندما تركت الغرفة المُوحشة، وأبعدوني عنكِ، شعرت بتجمد كل شيء حولي، وظننت أن روحي قد فارقت جسدي، اقتادوني إلى سيارة فارهة، فيها عدد من الفتيات الصغيرات، لكن أجسادهن تمنحهن أعماراً أكبر من حقيقتهن الطفولية، ومنحونا الطعام والشراب الذي حُرمنا منه، فقفز بعض الاطمئنان إلى قلوبنا، ذهبوا بنا إلى بيتٍ كبيرٍ، مكون من عدة طوابق، لم أكن أعرف عن ماهيته شيئاً، لكن ما أعلمه أن السكينة التي غمرتني منذ لحظات غادرت بلا رجعة.

شاركوني غرفة صغيرة جداً مع اثنتين ممن كن معي، وظيفتنا الأولى هي مسح وتنظيف الغرف من أشياء، لم أكن أعلم عنها شيئاً، والغريب أن تلك الغرف تتشابه كثيراً، فجميعها غير مهندمة أو مرتبة بنفس الطريقة، زجاجات الخمر في كل مكان، والأَسِرَّةُ تبدو وكأن حيوانات قاموا من عليها قبل ثوانٍ، غير تلك رائحة العرق، المشوبة برائحة غريبة لم تخلو منها غرفة، ملابس ملقاة على الأرض بإهمال وأخري متقطعة، وأحياناً كانت تقابلنا بقع صغيرة من الدماء على تلك الفرش، كان يجب علينا، ولا بد من أن ننظف تلك الغرف بسرعة كبيرة، فإن لم نفعل كان الحبس والسحل هو الطريق الأمثل للعودة مرة أخرى للتنظيف.

عشنا الحياة هناك بلا أرواح، أجسادنا تتراقص كالمخمورين، ولم يعد هناك مجال للأحاسيس، فنبدو وكأننا حيوانات تقطن هذا المنزل العفن، بل إن الحيوانات أحياناً تشعر.

مضت الأيام والشهور علينا، وكأنها قرون، ولكنها مضت كما يمضى كل شيء، وحين نضجت وجدتهم يلقون عليَّ بالزينة والملابس الجميلة، وكل مستحضرات التجميل التي حلمت بها في كل لحظة، وعندما انتهوا من كل ذلك أدخلوني تلك الغرفة التي كنتُ يوماً أنظفها، وأمسح بلاط أرضها.

أغلقوا الباب من خلفي، سمعت صوت المفتاح يُدب فيه، ويغلق من الخارج، ومعه ضحكات من كانوا يزينونني.

يجلس منفرداً على كرسيه المُتحرك، فيميل للوراء، ويعود للأمام مرة أخرى، عيناه تتفرساني بشدة ثم.....

وعيتُ وفهمتُ وأدركتً لمَ كانت الملابس ممزقة؟؟، ولمَ كانت الفُرش غير مهندمة بهذه الطرقة، حتى بقع الدماء، أدركت طبيعتها وكنهها. مضت الأيام مرة أخرى، وخارت معها قواي من كثرة المُقاومة، حتى اعتدت على هذه الحياة، بما فيها رائحة العرق، حاولت الفرار كثيراً، ولكن كل مُحاولة، كانت تنتهي بقدمي معلقة لأعلى ورأسي يُقبل الأرض، لتلتقي الدماء في رأسي بعد فراق، لتتعانق ويخرج شرر من عناقها يكاد يُفجر رأسي.

دخلت عليّ إحداهن ذات يوم، لتقدم لي الطعام، فضربتها بكوب زجاجي، ثم هربت، لا أعلم كيف حدث ذلك؟ لكنه حدث.

شرعت في الجري، لا إلى وجهة معلومة، ولكن الهروب كان من أجل الهروب فقط، الهروب من أولئك البشر، غير البشريين، معدومي الإنسانية منزوعي الرحمة.

وصلت إلى أحد البيوت، ثم بدأت الطرق بشدة على الباب، بكل قوة وصراخ مكتوم يخرج مني استنجاداً بمن بالداخل وخوفاً علَّ أحداً منهم

يتبعني، فتحت لي امرأة كبيرة، ارتميت في أحضانها، وبكيت بُكاءً لم أبكه يوماً، أبصرتها وزوجها بكل ما حدث معنا، منذ كنا في قريتنا حتى لحظة هروبي منهم.

اعتنيا بي كثيراً، وكأني ولدت بين جدران هذا المنزل، هو نِعم الأب، وهي نعم الأم، فترة وجودي معهما، والتي لم تتعد الستة أشهر، وجدت فيها عوضاً كبيراً عما فاتني، ولكن دائماً، وكالعادة لا تستمر الأيام التي نريد استمرارها، بل تنتهي سريعاً، لتأتي أشق من سابقتها. مات من اعتنيا بي، ووجدت نفسي وحيدة مرة أخرى دون أحد يحتويني، حتى جاء رجلان من الكنيسة، وقالا لي:

- لا بد أن تأتي معنا، فهذه وصية أصحاب المنزل، كتباها وأرسلاها إلينا، عندما أحسا بقرب المنية، أرادا أن يحافظا عليكِ من أن يأتي من هربتي منهم فيغصبوكِ ويُجبروكِ على العودة هناك مرة أخرى.

وقعت على أذني هذه الكلمات الأخيرة، فوجدت رائحة العرق الكريهة تتسرب إلى أنفي دون سابق إنذار حتى بدأت الذكريات البشعة تمر على شريط ذاكرتي من جديد، يبدو وأن محوي لها كان مؤقتاً، وليس أبدياً.

على الفور وافقت على الذهاب معهما إلى الكنيسة، بل إلى أي مكان كي أفر من تلك الحياة الكريهة.

ثم جئت إلى هنا.

سوريا ٢

تطايرت شرارات التعجب من عيني، لتهبط على أيدي فتلسعني لأستفيق على صوت أخي الرقيق.

- نعم يا إسراء كل العصور والأزمنة التي مرت علينا، والتي يزعمون أنها قمة الحضارة والتطور، أنا أقولها بأعلى صوت، إنها قمة الفشل والسرقة والكذب، ولن أبالغ إذا أضفت إليها كلمة الإسفاف.

أختاه.. إنهم قد ضحكوا علينا، وغيروا لنا المفاهيم، لتصبح أفعالهم المحرمة حلالاً، لا شبهة فيها، وتصبح أفعالنا رجعية وتخلفاً لا مراء عليها.

أختاه.. إن تلك المباني التي يعظمون بانيها، والآثار التي تكلفت المليارات من الأموال، لم تكن يوماً هي الحضارة، ولم يكن من بناها هم دعاة الحضارة والتطور والبناء، دعكِ من أنهم سرقوا تراثنا العلمي، الذي أهملناه ووضعناه أسفل أقدامنا وخلف ظهورنا، ولكني أتحدث عن الحضارة الحقيقية، هي تلك التي تهتم بوريث الأرض ومن عليها، تعتني بمن خُلقت له السماوات العلا والأراضين السبع، لمن خلقت له الشمس، ولمن وهب له الهواء والماء، الحضارة الحقيقية هي التي تضع الإنسان في المقام الأول لتطوره، تهتم بأخلاقه التي إن سمت وعلت، أضحى هذا الإنسان كالملائكة التي لا تعصي الله والمنزهة عن كل عيب، وإن اختفت تلك الأخلاق فيصبح

الإنسان كالشياطين، التي لا تعي شيئاً، إلا الرذائل والفاحشة، الحضارة هي التي تهتم بالإنسان وهيئته وملبسه، الذي أضحي اليوم قريباً جداً من الحيوانات، لا يغطي عوراتها إلا الفرو، أو الريش، أما باقي الجسد فهو حلال مباح، تغتصبه الأعين وتشتهيه الأنفس.

- رويداً يا أخي لقد أدركت معني الحضارة الآن، ولكن لم يستوعب عقلي أنك تشبه الإنسان الذي كرمه الله بالعقل بذلك الحيوان الذي لا يعقل أي شيء مما يفعل؟

- نعم يا إسراء لم تخطئي في أي حرف مما نطقتي به، ولكني سأعود بكِ إلى قديم الأذل، إلى بداية الخليقة إلى جنة آدم وحواء وإبليس، أتذكرين ما قصصته عليك في طفولتك، عن ذلك الرجل الذي كان يعيش في الجنة مع زوجته، التي خلقها الله له من ضلعه لتأنس له وحدته؟

استكملت أخته جزءاً من القصة، حتى تتيقن من صحة ما سيرويه لها، فقالت:

- ثم منحهما الله كل ما في الجنة، ومنعهما عن شجرة واحدة، فأغواهما الشيطان منها، فأكلا منها؟

قال الأخ:

- بالفعل يا إسراء، هذا ما حدث، وقد حان الوقت، لاستكمال ما تبقى من القصة، كي تدركِ جزءاً صغيراً من الحكمة الإلهية.

- بعد أن عصي آدم وحواء أمر الله، الذي نهاهما عن الاقتراب من الشجرة، وسارا خلف خلود إبليس الوهمي، ووعده الكاذب الضال، نزع الله عز وجل عنهما لباسهما، لتتكشف عوراتهما، ويصيرا كما خلقهما الله أول مرة، وبدون أي مقدمات أو تفكير، بدءا رحلة البحث عما يسترا به عوراتهما، فتجولا في المكان لاهثين، محاولين التستر بعيداً عن أعين الملائكة وإبليس، وخوفاً وخجلاً من الله عز وجل، بعد أن منحهما كل شيء، ومنعهما عن أقل القليل، فعصياه (وهذا هو طبع البشر)، طال البحث فلم يجدا سوى أوراق الشجر- وكانت كبيرة في الجنة- ليسترا بها عوراتهما.

ومن هنا يتكشف لعقولنا التي ميزنا الله بها عن سائر المخلوقات، الكثير عن ماهية الملابس التي هدفها الوحيد هو ستر العورة عن أنظار الناس، ولكن إذا انشغلنا بأحدث صيحات الموضة ارتدينا ملابس جذبت الأنظار، ولفتت الانتباه تجاهنا، بشكل مبالغ فيه، فإن هذا يعني أنها تخطت الغرض الأساسي، والهدف السامي من ارتداء الملابس، وهذا ليس دعوة لارتداء أقذر الملابس بالطبع، فعلى الإنسان بصفة عامة، والمسلم بصفة خاصة أن يكون جميلاً؛ لأن الله يحب الجمال، ولكن على المرأة خاصة، أن ترتدي الذى

ما إن ضعف رجلٌ، ولم يغض بصره فنظر إليها، لا يُفتتن، سواء بجمالها أو بمفاتنها، وبالقياس فإن المرأة وجب عليها أن تغض بصرها أيضاً.

- لحظة.. هل تقصد أن المرأة يجب عليها أن تغض البصر أيضاً مثل الرجل؟!!

تساءلت بتعجب شديد.

أجاب سريعاً، وفي ثبات:

- بالفعل.. وجب على المرأة أن تغض البصر، ليس كالرجل بل أشد، ولكن قبل أن أجيب سأذكرك بقصة، جميعنا يحفظها عن ظهر قلب، وهي قصة سيدنا يوسف مع امرأة عزيز مصر، التي راودت سيدنا يوسف عن نفسه، ودعته إلى فعل الفاحشة معها في بيتها بعد أن هيأت له كل شيء، ولولا أن الله جعل سيدنا يوسف من المُخلَصين، لضعف أمام جمالها ومفاتنها كأي رجل، ولكن هل تدركين لماذا راودته هي عن نفسه؟

قلت:

- لأنها أحبته، وأُعجبت به؟

قال:

- بالفعل.. ولكن لماذا أعجبت به؟

قلت:

- لأنه كان فائق الجمال، وحسن البنية؟

قال:

- عظيم. وكيف هي عرفت ذلك؟

قلت:

- عندما نظرت إليه.

قال، وكأنه وصل إلى بغيته:

- وهذا هو ما أريد الوصول إليه، عندما نظرت إليه، أعجبت به، وعندما أعجبت به تعلقت به بقوة، وعندما تعلقت به تمنته في نفسها، وعندما تمنته، جهَّزتْ ودبَّرتْ وخططتْ كل شيء، حتى تراوده عن نفسه وتزني معه، ولكنها لو لم تنظر إليه لم حدث كل هذا.

أي أن نظرة صغيرة من امرأة إلى رجل كادت أن تقع في الزنا، لولا أن حفظه الله من ذلك، وحفظها معه أيضاً، ليس هذا فحسب، بل إن نظرتها كادت أن تُوقع كثير من النساء في نفس الفتنة، فعندما علم نساء المدينة بما فعلته امرأة العزيز، تحدثن عنها كثيراً، وأنكرن عليها فعلتها، فاضطرت لمنحهن سبباً قوياً لم فعلته، جمعتهن في قصرها، ووضعت لهن مجلساً يتكئن عليه، ومنحت كل واحدة منهن سكيناً، ثم قالت لسيدنا يوسف تعال أن أدخل عليهن، فلم دخل أطلقن نظراتهن إليه، فقتلتهن شهواتهن، فلم

يتمالكن أنفسهن، فجرحن أيديهن لشدة جماله، كل هذا بسبب نظرة واحدة من عين زوجة عزيز مصر، كادت أن تفتن نفسها، وجمعاً كبيراً من نساء المدينة.

شعرت بإرهاق شديد برأسي، وكأنها امتلأت على أمها بمعلومات كثيرة وكبيرة لم أكن أعلم عنها شيئاً، ولن أخفي سراً؛ فإن كل كلمة خرجت من فيه أخي وقعت على رأسي كالصاعقة، وهي تفاجئ الأرض بضوئها المُميت، شعرت بكل كلمة، وهي تخترق أضلعي لتجعلني أؤمن بها.

المدير ٥

– منذ قديم الأذل، حاول الإنسان كثيراً، وبشتى الطرق الوصول إلى الأشخاص، وتتبع آثرهم، إما لجلب مُتهم كالسارق، وإما توصيل رسالة، وغيرها من الأسباب التي تجعل البعض يتَتَبُع آثار غيرهم.

فكانت البداية بتتبع آثار الأقدام على الرمال، حيث يقوم أحدهم بالنظر إلى الأرض، فتظهر آثار النعال بارزة كالشمس، فيتم تتبعها حتى يتم الوصول إلى نهاية الطريق، الذي سار فيه الشخص المُراد الوصول إليه.

وبمرور آلاف السنين، تتطور الوضع إلى بصمة الإصبع، حيث تم اكتشاف أن كل إنسان له بصمات (علامات) على أصابعه، لا يوجد لها نظير على وجه الأرض.

فكانت بدايتها منذ ٣ آلاف سنه، حين استخدمها الصينيون في ختم عقود البيع والشراء والتملك، ثم استخدمها الإنجليز في القرن الـ١٩ في إقليم البنغال في الهند، للتفرقة بين المساجين والعمال.

ثم جاءت بصمة العَرَقِ كوسيلة أخرى للتعرف على الأشخاص، حيث تم التوصل إلى أن كل شخص لديه بصمة عَرَقٍ خاصة، هو فقط به تميزه عن غيره من ملايين البشر على سطح الأرض، وتعتبر رائحة العَرَقِ أحد

الشواهد في مكان الجريمة، لهذا يتم تدريب الكلاب البوليسية، لاستخدامها في التعرف على المجرمين من رائحة العَرَقِ الخاصة بهم.

بعد ذلك توصل العلماء لبصمة الشَّعْرِ، حيث إن الشَّعْر لا يتعرض للتلف بمرور الوقت، لذا يعتبر هو من أفضل البصمات للتعرف على الأشخاص وتتبع آثارهم، ثم اكتشفت بصمة الصوت، وبصمة العين، حيث إن كثيراً من الخزائن لا يتم فتحها إلا ببصمة صوت لصاحبها، أو عند التعرف على بصمة عينيه.

أنهت تينا كلامها، ثم قامت من مكانها، ووقفت في الشرفة، وهي تمتع عينيها بذلك المنظر الخلَّاب والمُغَلف بالخَضار الذي يعزف مقطوعة السلام والسكينة بداخلها.

شعر ألونسو بأن تينا لم تتوقف؛ لأن كلامها وصل للنهاية، أو حتى أنها لم تجد ما تقوله، تيقن أنها تضمر وتكتم شيئاً ما بداخلها، تريد البوح به، ولكن يوجد ما يمنعها، نظرتها توحي بذلك الشعور، كلام كثير مسجون بداخلها، ويطفو على حافة عينيها.

- تينا.. تينا .. هل أنت بخير؟

قالها وهو يخطو نحوها ببطء وحذر شديدين.

قالت تينا، وما زالت عيناها تنظر إلى الخضرة دون اكتراث:

– لقد توصلنا في الشركة إلى اختراع، لم ولن يُتَوَصَّلَ إليه على الأقل في المائة العام القادمة، سيذهل العالم عندما يصله الخبر، اختراع كلفنا مليارات الدولارات، وآلاف الأبحاث والعلماء. بدأنا العمل عليه منذ سنين مضت.

كانت فكرتي التي أقنعت بها عقلي غصباً، حيث إنه لم يكن يستوعب فكرته من الأساس، حينها أسرعت إلى شركتنا لإقناعها بنظريتي حتى يتم العمل عليها في أسرع وقت، بعد حروب عدة واتهامات شتي، كإهدار أموال الشركة، وإهدار الوقت في أفكار طائشة، لا دليل على صحتها، خسرت في جولة التصويت بالأغلبية، عدا صوت واحد غير صوتي، كان يؤيد فكرتي، هو الدكتور ألبرت، ولكنه لم يعلن عن ذلك التأييد، فصوت ضد فكرتي مثلهم.

كان يؤمن بعقليتي وفكري الذي يصفه بالجنون الجميل، ساعدني خلسة، فأرسلني إلى مَعْمَلِهِ الخاص، والذي كان عبارة عن تحفة فنية، جُمع فيها كل ما يخطر على العقل، من معدات وآلات وعلماء مستعدون لتنفيذ كل ما يُقال لهم.

بعد أن رفضت الشركة بالأغلبية، أصابني إحباط شديد، ودخلت في نوبة من الاكتئاب، فصاحبه مرض نفسي شديد ألزمني الفراش مدة صغيرة،

وهنا أجبرتني الشركة على إجازة مفتوحة، حتى تهدأ حالتي وتعود لسابق عدها.

مر يومان وأنا قابعة في سريري، أنظر إلى الفراغ، أتعمق في فكرتي المجنونة، ممنية نفسي برؤيتها للنور يوماً ما.

سمعت طرقات خفيفة على باب المنزل، قمت بتكاسل قاتل، وفتحت الباب، ليظهر لي الدكتور ألبرت، في زيارة دون سابق إنذار، وأخبرني بأنه يريد مساعدتي، مع يقينه التام بما يحول في عقلي وما يحتويه.

دبت الحياة في روحي قبل جسدي مرة أخرى، وفي نفس اليوم، ذهبت إلى مَعْمَلِهِ الخاص، وتحت إمرتي عدد لا يحصى من العلماء والمعدات، لازمني الذهول فترة، فاستفقت منه سريعاً، فلا وقت له لدي.

دبت روح العمل الجاد والشاق بالمعمل سنواتٍ طويلةً، وأنا في تلك المقبرة منكفئة العنق، منحنية الظهر لم يشغل تفكيري شيء، سوى هدفي الذى لم تر عيني لحظة غيره، وكي أثبت للجمع الذي صوَّت ضدي، أنني لم أكن أهزي مثل المرضى النفسيين، كما أني أريد أن أكون أول وأصغر مخترعة، تترأس أكبر شركة اتصالات في العالم، وهو ما حدث بالفعل.

قالت كلماتِها، فتملكها الصمت، وكأن الحياة خرجت من بين ثنايا جسدها المُتصلب المتعمق في الخضرة، والذي علقت ذاكرته في عالم آخر، رسم السعادة على وجهها.

حاول أن يعود بها إلى غرفته في فندقه الفاخر، فقال بسخرية لاذعة لاستفزازها:

- هل بصمة الظل هي ما جعلتك تتربعين على عرين الشركة؟ أكانت تستحق كل ذلك العناء؟

انفجر الشرر من عينيها، فَعَلِمَ أن كلماتِه أتت بمُرادها، فقالت:

- بهذه البصمة لن يختبئ منا أحد، لن يهرب حتى لو كان في أبعد مكان على سطح الأرض، إن بصمة الظل لها مفعول أقوى من السحر، وتسخير الجان.

- وكيف تعمل تلك البصمة؟

قالها بلا مبالاة، وكأنها تتحدث عن طريقة كيفية هرس الفول؟ أو طريقة عمل الكيك؟

أسرعت إلى حقيبتها، وأخرجت منه "لاب توب" صغيراً، يعمل بخاصية اللمس (التاتش)، وقامت بتشغيله.

الشريحة ٥

مع كل صوت لوقع القدم على الأرض، يفزع قلبي فزعاً، فيهبط في قدمي، حتى فتح باب غرفة العمليات، وأنا قابع أسفل السرير في منتصف الغرفة، لحظات وأغلق الباب سريعاً، وكأن من فتحه متيقن أشد اليقين، أنه لا يمكن اختراق نظام المركز شديد الصرامة، وهو بالفعل مؤمن بقوة، ولولا أن حالفني الحظ لما تمكنت من اختراقه.

سارت الأقدام في تباعد حتى اختفت، وهدأت دقات قلبي رويداً رويداً، فذهبت أتتبعها وكأن الجمود تحوَّل إليّ، وانعدم الشعور بداخلي، وتبدد الخوف، وشعرت أنه لم يخلق لأمثالي، فكل ما أردته هو معرفة الحقيقة، كما أن يقيني بأنهم يحتاجون جسدي لوضع الشريحة به، والتي أضحت فارغة منذ لحظات، سيجعلهم لا يقومون بأذيتي.

تتبعت الخطوات، ولكنها سبقتني، فأصبحت لا أعلم لأين أتجه؟

فَسِرْتُ يساراً لعلي أجد شيئاً، خطوات معدودة، والتقطت أذني همهمات صغيرة، فشعرت أني قريب منهم إلى حد ما، أكملت السير يساراً، وأنا مطأطأ الرأس، في محاولةٍ للتخفي، بعد بضع خطوات أدركت أني على مقربة منهم، فتقدمت بحرصٍ، خطواتٍ أخرى، فبدا الصوت خافتاً، ولكنه مسموع، فآثرت الأمان على قوة الصوت فمكثت مكاني.

من الواضح أن شخصاً يقوم بشرح طريقة العمل هنا في المركز، ومدى النجاح الذي توصلوا إليه، ومقدار الخسائر والتطورات التي توصلوا إليها.

هذا الصوت أعرفه جيداً، إنه صوت مستر هنري، نعم إنه هو، ولكن مَنْ ذاك الشخص الذي يقف أمامه مستر هنري، شارحاً كتلميذ أمام معلمه؟؟

ثم جاء صوت أنثوي، أعتقد أنني سمعته يوماً ما، ولكني لا أدري أين؟ حاولت استنباطه، ففشلت، ثم قال الصوت:

- وأنت يا (كال) ما رأيك فيما قاله هنري؟

صعقت صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، ارتعدت أوصالي، وارتعشت أطرافي، حتى جلست فوق الأرض، وأسندت ظهري للحائط، وملت برأسي للخلف لأتمالك نفسي.

مسيو كال؟ ولكن ما الذي يفعله هنا؟ دارت رأسي دورة كدورة الأرض حول الشمس، وحول نفسها فتهت، بات عقلي أقرب للجنون، ما كل هذا؟ وما هذه الشبكة شديدة التفرع؟ هل الأمر يحتاج فعلاً لكل هؤلاء؟ ولكن ما ذلك الأمر أصلا؟.

في البداية أجد الصورة على "لاب" مديري؟؟!!، ثم أجد نفسي هنا دون مقدمات؟؟!!، والآن أجد مديري يحادث مستر هنري وتلك السيدة؟؟!! ....

اااااه تذكرتها إنها السيدة الأولى في الشركة، كثيراً ما رأيتها مع مستر هنري، ولكني لم آبه يوماً بتفاصيل غير تلك التي توكل إليّ في عملي، ولكن ماذا تفعل هنا هي الأخرى؟

جاء صوت مديري مسيو كال قائلاً:

- إن ما حققوه من تطور في المركز، فاق توقعاتنا، فالسرية والأمن الإلكتروني عالٍ جداً، كما أن النتائج مبهرة، والجميع يشهد على ذلك، أليس هذا ما ترينه سيدتي؟؟

جاء صوتها متحفزاً ومتحدياً، ولم تجب على مسيو كال، وقالت موجهة الحديث ناحية مستر هنري:

- نريد أن نرى بعض النتائج الآن مستر هنري، هل تسمح لنا؟

بلهفة قال هنري:

- بالفعل سيدتي.. كما تشائين.

أخرج هاتفه المحمول، وتحدث به قائلاً:

- أحضر ما أخبرتك به صباحاً إلى غرفة الاجتماعات، وأغلق الهاتف.

عشش الصمت في الغرفة لدقائق، ثم أتى صدى أصوات أقدام كثيرة، لتهد هذا العش من الصمت رأساً على عقب.

حاولت أن أسترق الرؤية أيضاً، فبحثت عن مكان صغير في الزجاج لا يمكن لأحد رؤيتي منه، دارت عيني بحرص بالغ، فلم أجد سوى مكان في نهاية الممر، ذهبت إليه، ولكن الصوت قد انعدم، وبِتُّ أراهم من ظهورهم: مسيو كال، ومستر هنري، ومديرة الشركة، وشخصين آخرين، لم أتمكن من معرفتهما؛ فإنهما لم يتحدثا حتى الآن، ولم أر وجهيهما أيضاً.

رأيت الأشخاص الذين نجحت عملياتهم واقفين بجوار بعضهم البعض، ورؤوسهم مرفوعة، وأيديهم متشابكة خلف ظهورهم!!، في خنوع تام!!، ورضوخ مستفز!!.

تحدث مستمر هنري، ولا أعلم ماذا قال، ولكني رأيته يشعل سيجاراً كبيراً، أعطاه لأحدهم، فقبض عليه سريعاً، وقام بتعرية بطنه، ثم أطفأها في جلده.

وفي تلك اللحظة حامت حول أنفي رائحة جلد يحترق، وشعرت بوخزة قوية ببطني، وكأنني أنا من فعل هذا، فتجمعت أسئلة كثيرة في عقلي!!، لم فعل هذا؟؟ ولماذا قد يفعله؟؟ لم هذه الطاعة العمياء؟؟

ثم رأيته يشاور لحارسه الخاص، فناوله سكيناً، وأعطاه لآخر، وحرك شفتيه، فقبض الشخص على السكين وقربها من أذنه اليمنى، مرر السكين عليها ببطء ذهاباً وإياباً، حتى فصلها تماماً عن جسده بهدوء!!، ثم ركع على

ركبتيه وقدمها للسيدة مديرة الشركة!!، كل هذا، ولم يُخْرِجْ صراخاً أو حتى أنيناً خافتاً، ينم عن ألم.

أعطى كل واحدٍ منهم أمراً، لا يقل فظاظة عن الآخر، فنفذوها كما طلب منهم.

وهنا قام الحضور بالتصفيق بحرارة، وشعرت بأن العرض قد انتهى، وأن هناك شيئاً قد يقال، فسرت ببطء عائداً للأمام، كي أسمع بعض حديثهم.

وصل صوت المرأة إلى مسامعي، قائلة:

– كل ما توصلنا إليه هو بفضلك أنت سيدي، أنت من آمن بقدراتي، وأهداني تلك الفرصة العظيمة، كي نبني هذا الصرح العظيم، ونعاقب عالم الأغبياء، الذين ما زالوا ينادون بأفكار رجعية، وأخلاق مغلَّفة بالنفاق.

رد الصوت في هدوء:

– أنتِ تستحقين أكثر من ذلك، وأنتِ أكفأ مَنْ رأيت.

– ألم أخبرك يا حبيبي أن كل شيء سيصير على ما يرام، فلا تقلق بتاتاً، فأنا بجوارك.

بصوت لم يسمع من قبل، يبدو أنها وجهت كلامها للشخص الآخر، فرد قائلاً:

– بالفعل حبيبتي، فأنا لن أقلق قط وأنتِ بجواري، ولذلك اتصلت بكِ فأنتِ حياتي ومنقذي.

اتخذ الحديث مجرى آخر، وشعرت بملل مستر هنري، ومديري أيضاً، ولكني متيقن أنهم لا يجرؤون على التحدث دون أن يطلب منهم ذلك.

مضت دقائق، والوضع لم يتغير، حتى سأل أحد الرجلين مستر هنري قائلاً:

– مستر هنري.. هل يمكن باختصار أن توضح لنا ما يمكن أن يقدمه المركز لأعمالنا؟

شعرت بأن إجابة مستر هنري ستقتل كثيراً من الأسئلة، التي تنهش عقلي، فاستعدت تركيزي من جديد وأنصت باهتمام.

خرج الصوت من أعماق مستر هنري، قبل أن تسبقه تنهيدة قوية توحي بأنه كان في انتظار ذلك الجزء الخاص به فقال:

– باختصار شديد يا سيدي، نحن من نحكم العالم، فهنا في المركز مجموعات كثيرة، كل مجموعة تتكون من جنسيات مختلفة، مثل الهند والصين وأمريكا ومصر وتونس والأرجنتين وغيرهم، أولئك الأشخاص، منهم من ارتكب جريمة في بلاده، فقمنا بتهريبه وأقنعناه بأن يعمل لصلحنا، ومنهم من لديه مهارات خاصة ومختلفة فأوهمناه بأننا سننميها له، وآخرون

أخبرناهم أنهم يساعدون البشرية بما يتعلموه من علوم، فيقدمون لهم العلم النافع، ويمنعون الجهل من أن يضرهم، وهناك مجموعة حاولوا التمرد علينا فكان عقابهم ذلك.

- النقطة الأخيرة كانت تخصني وتؤكد لي أني ضمن هؤلاء المتمردين، عندما اخترقت جهاز مسيو كال، وأنا هنا معاقب على فعلتي الحمقاء.

استفقت سريعاً كي يستوعب عقلي كلام مستر هنري، فأردف قائلاً:

- ثم يأتي دور المركز بتدريب هؤلاء الأشخاص، بطرق خاصة، فتتطور المهارات، لتصل لمستوى عالٍ، ونضع كل شخص في المكان المحدد له، كي يتسنى له خدمتنا على أكمل وجه، وأجود صورة، ثم نقوم بعمل بعض الإجراءات اللازمة (عمليات)، فنزرع شريحتنا الخاصة في مؤخرة رؤوسهم بعد تهيئتها محملة بتعليماتنا، كما يوجد بها جزء صغير يُمَكِّنُنَا من السيطرة على العقل والتحكم به، ومن ثم التحكم بهؤلاء الأفراد، باختصار هذا الجزء يحل محل الإنسان، حين يفكر، لذلك فنحن نضع الأفكار التي نريدها، ونرسلها للعقل مباشرة، فينفذها دون الرجوع للشخص نفسه، وهذا يعني أنهم أضحوا آلات بين أيدينا، نفعل بهم ما نشاء، وقتما نشاء.

ثم أكمل الحديث في لهفة، مغلَّفة بالانتصار:

– وعند نجاح العملية، نقوم بحقنهم ببعض المواد، فنمحو ذاكرة الشخص تماماً، فيصبح رهن إشارتنا، كما رأيتم منذ دقائق، وبهذا يمكننا أن نصنع ما نريد في الهند، ونفجر ما نشاء في الشرق الأوسط، ونقتل من نريد، ونهدد أعظم الرؤساء، كي يرضخوا لطلباتنا، دون أن يكتشف أحد ما حدث، وإن اكتشف ذلك، فلن يستطيع إثباته بتاتاً.

لم أكن بحاجه لمعرفة المزيد بعد ذلك، ففي تلك الليلة أدركت أنني كنت ترساً صغيراً يدور في تلك الماكينات العملاقة، لأنفذ مآربهم دون قصد، ترس وضع ليهرس آلاف الملايين من الأبرياء، حتى وإن كنت جاهلاً بما يدور حولي، فكان لا بد وأن أعي وأبحث عن المكان الذي أفني فيه عمري، خادماً مطيعاً له، كنت تائهاً مثل الملايين من التروس البشرية، التي تنمي وتطور وتتفنن في اختراع علوم وفنون وأسلحة أعدائها دون وعي، أما الآن وقد أدركت تماماً ما يدور، فيجب أن أنقذ ما يمكن إنقاذه، ولكن كيف أستطيع أن أداوي شيئاً وأنا بعد ساعات سأكون ملقى على سرير العمليات هذا؟؟.

تركت مكاني مسرعاً، واتجهت إلى غرفة العمليات، وفتحت الحاسوب الصغير، وبعد دقائق من العمل الشاق، ظهرت على الشاشة كلمة تم، وضعت كل شيء في مكانه، ثم توجهت لغرفتي.

مرت ساعة كاملة، أعد عقلي فيها فيلماً صغيراً لتلك الليلة، يبدأ في العرض، وحين ينتهي، يبدأ من جديد، لم أكن في انتظار النوم تحديداً، ولكني في انتظارهم. وضعت الدفتر في حقيبتي وقررت أن أمثل دور النائم.

انتهى الدفتر....

السفينة ٥

حظيرة الماشية، هي مكان قد يكون واسعاً أو ضيقاً، تُحبس فيه الحيوانات بواسطة مالكها، تقضي حاجاتها، وتعيش فيها وتنام أيضاً، يُوضع لها الطعام في أي مكان، وعادة تكون الأرض مأواه، فتأكل الحيوانات طعامها الممزوج بفضلاتها المهروسة تحت أقدامها، مشوباً برائحتها الكريهة، وإذا ماتت كانت مقالب القمامة لها قبراً.

هكذا كانت السفينة المتهالكة الواسعة، ولكن اكتظاظ الناس ألبسها لباساً ضيقاً، أُناس يعيشون فيها ويتحركون على سطحها، يأكلون الطعام المُلقى على متنها والساقط على سطحها الممزوج بأقدامهم المُتسخة، ورائحتهم التي فاحت في أركان المكان، والأمراض التي طفحت على جلودهم ووجوههم، حتى إن مات أحدهم، كان البحر له قبراً، تماماً مثل الحيوانات.

في سرعة مهولة كالعادة، وُزع الطعام على أشباه البشر، ورحلت الطائرة التي حملته، ودلَّته بحبلٍ غليظ، دون أن تهبط، انشغل كل واحد بطبقه، وحين انتهى من طعامه، بدأ ينظر إلى أرضية السفينة، ليبحث هنا وهناك، عن طعام سقط من المغرفة الصغيرة، أو عن شخص لم يستسغ طعامه، فيأخذه من يده عنوة، فينشب العراك في جميع أنحاء السفينة، وتجد الدماء قد سالت، والصراخ قد اشتد، والتأوهات تقف طابوراً طويلاً، وتتزاحم على

عتبة الآذان تنتظر الولوج، بل إنك إذا نظرت إلى مياه البحر، تجدها قد تكدرت باللون الأحمر، كالخدر يسير في الدماء.

أتت أليس إلى إياد، محاولة التحدث معه، لتقطع على أفكارها هتك عرض عقلها وتقتل هذه الذكريات التي تتمنى يوماً أن تفارقها، فأصبتها بعاهة مستديمة في عقلها، لا يمكن أن تتخلص منها، حتى بألف عملية تجميل.

نظر إليها إياد نظرة توحي بالشكر لإفاقته، هو الآخر، من غفوته في عالم قد ولى ولن يعود أدراجه مرة أخرى، فقالت له:

- كيف حالك اليوم؟ هل أنت بخير؟؟

ابتسم ابتسامة شاحبة، تتخللها السخرية، تدرك معناها جيداً، ثم قال:

كما ترين، هل يبدو أن أحداً بخير هنا؟؟!!، وأشار برأسه تجاه طرف السفينة الأيمن، ليجدا مجموعة من الأشخاص يحملون أحدهم ليلقوا به في الماء، بعد أن فاحت رائحته العفنة، ثم سكت.

قالت في هدوء:

- أتدري يا إياد ما هي الصلة التي تجمع بين كل هؤلاء؟

انكمش وجهه، فرُسمت عليه علامة استفهام كبير تقول:

- أجيبي أنت.

قالت بهدوء وكأنها سمعت نداء عقله، دون أنت تنتظر:

- الحياة الظالمة، والدنيا الخادعة التي تعطي لنا أوهاماً وأحلاماً، وتمنحنا الأمل، ثم تحطم كل هذا على صخرة الواقع المرير، فنغرق في عالم من الأوجاع، فمنا من يتحمل قدر المُستطاع، أما من ييأس ويستسلم، فيتمني زيارة الموت له كل يوم مائة مرة، وهو في سن صغيرة.

دون أن يلقي بنظره ناحيتها، رد إياد في هدوء قائلاً:

- لا.. لا أتفق معك فيما تقولين، فهذا خطأٌ كبيرٌ جداً يقع فيه كثير من البشر، إما جهلاً بطبيعة الحياة وإما عمداً، حتى يلقوا عن كاهلهم عبء الحقيقة المؤلمة.

قالت بحيرة:

- وما الخطأ في ذلك؟؟ أليست الحياة هي من تعطينا وتمنعنا، وتأخذ أحبتنا وتنزعنا من بين عائلاتنا؟؟، وهي أيضاً من أتت بنا إلى هذه السفينة التي سنموت عليها جميعاً.

- بالطبع لا..

قالها إياد، ثم سكت هُنيهة، محاولاً إفراغ عقلة، الذي تحوَّل إلى مهبط للطائرات، هبطت عليه ذكريات حياته فجأة، لتصدر صدى عالياً يصم أذن عقله.

قالت في تعجب:

- كيف لا؟ ثم استأنفت كلامها مستهزئة:

- هل أنت تعيش معنا في هذا الكوكب؟؟ أم يا تُرى جئت من كوكبٍ آخر؟.

قال متحدياً:

- هل تستطيعين إخباري ببساطة، ما الفرق بين الحياة والدنيا؟

سكتت، ولم تستطع أن تجيب، من غرابة السؤال، الذي صدمها، فألجم عقلها قبل أن يُلجم فمها.

قال إياد:

- أنا سأُخبركِ.. إن الحياة هي فترة زمنية لشخص ما، أو عصر ما، يعيشه الإنسان، أو مجموعة من البشر.

- أما الدنيا من الدنو، أي المكان الذي تعيش فيه مجموع البشر، مرتبط بفترة زمنية، وهي وقت البشر في حيواتهم، بداية من سيدنا آدم، حتى آخر بشري سيفنى من على كوكب الأرض.

- أي أن الدنيا هي المكان، وهي بذلك أعمق وأشمل من الحياة، ولكن يوجد شيء صغير يتفقان فيه، أتدرين ما هو؟

حاولت أن تجيب، وتستعيد كل ما تعلمته من حياتها، فأعادت كلماته السابقة على ذهنها مرة أخرى حتى تمكنت من اقتناص إجابة، فقالت في تردد:

- الوقت؟

قال إياد بوجه مبتسم:

- بالفعل الوقت هو الشيء المشترك الذي اتفقا فيه، ولكن ما هو الوقت؟

تمهلت في الإجابة هذه المرة، ثم قالت بصوت متقطع:

- الوقت هو الأيام والشهور والسنوات.

بسرعة فائقة أكد إياد على إجابتها، وكأنه يشكر عقلها على استيعاب ما يقوله حتى الآن، واستلم دفة الحديث منها، شاكراً، فقال:

- نعم يا أليس، إن الوقت هو اللحظات والثواني والدقائق والساعات والسنون والعقود والقرون، والآن هل لي بآخر سؤال لكِ أسأله وأنا متيقن من إجابته؟

قالت باضطراب:

- اسأل.

قال ونشوة الانتصار تملأ عينيه، ليس إلا لأنه سيقنعها بخطأ تفكيرها:

- كيف يعقل أن تؤذي الحياة (الدنيا)، التي تتكون من أيام وشهور وسنين، إنساناً؟

لم ينتظر منها إجابة، واستكمل الكلام، بعد أن وقف لحظة فقال:

- يا أليس إن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا أيام تمر، لا تؤذي، ولا تضر أحداً، تماماً مثل شخص يقول: إن البلد الفلاني أسوأ مكان في العالم، وبنفس المنطق السابق، هذا المكان ما هو إلا شوارع ومنازل تتكون من حبات صغيرة من الرمال.

هنا تكمن المشكلة الأساسية لا في الحياة (الدنيا)، ولا في البلاد، ولكن ببساطة، تكمن المشكلة في الأشخاص، الذين يعيشون في الحياة، ويقطنون المنازل، الأشخاص الذين يتسمون بالأخلاق، سواء كانت حميدة، فينعم من حولهم معهم بالحياة، أو سيئة وفاسدة فتكون النتيجة كما ترى بعينك، أشخاصاً مشردين خارج بلادهم يتسولون الحياة، أو موتى على الحدود وفي المحيطات، أو حتى خلف الأسوار في بلادهم، يدفعون من عمرهم ثمن جرائم لم يرتكبوها يوماً، أو مرضى على أسرة المستشفيات، يحجزون موعداً مع ملك الموت، الذي لا يأتي إلا بغتة، فلا تلقي بأخطاء البشر على عاتق الحياة؛ فإنها بريئة كل البراءة من كل ما يُنسب إليها.

- كل حرف نطقت به لم يمثل إلا الحقيقة المُرة، التي نعيشها بواقعنا المؤلم.

جاء هذا الصوت من الناحية التي يجلس فيها إياد، فتوجهت الأنظار إليه.

الأندلس ٤

انتهي العصر الذهبي لدور القراءة، وذرته الرياح بعيداً إلى مكان يحتاج لرجال كي يُحيونه مرة أخرى.

بعد موت محمد والحكم، سار الوضع جيداً، حتى انتشرت الدور في كل مكان، وساعدت على نشر العلم في نطاق واسع من الدولة، وفيما جاورها، حتى البلاد غير المسلمة، كانت تنعم بالعلم بفضل تلك الدور، فذات يوم أرسل الملك جورج الثاني ملك إنجلترا ابنة أخيه، الأميرة دوبانت، ورئيس ديوانه على رأس بعثة، مكونة من ثماني عشرة فتاة من بنات الأمراء والأشراف، إلى أشبيلية لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك الإسلامي، وكل ما يؤدي إلى تهذيب المرأة. ولقد أرسل رسالة معها هذا نصها:

(من جورج الثاني ملك إنجلترا والبرتغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام، وبعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم، لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان، ولقد وضعنا ابنة

شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز، تتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة وحدب من اللواتي سيتوافرن على تعليمهن. ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص..

من خادمكم المطيع جورج ملك إنجلترا).

ولم يكن رد الخليفة عليه إلا تأكيداً على السيادة الحربية والعلمية على تلك البلاد، وما جاورها فقال:

(بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين وبعد:

إلى ملك إنجلترا وايكوسيا واسكندنافيا الأجل... اطلعت على التماسكم، فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين، دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي.

أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية، وهي من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتنا ومحبتنا والسلام..

خليفة رسول الله في ديار الأندلس هشام الثالث).

توالى الاهتمام بتلك الدور اقتداءً بما فعله الخليفة عبد الرحمن الناصر، لم يكن هذا منَّةً أو تفضلاً من أحد الملوك أو الأمراء، ولكن يتم تمويل هذه الدور من بيت مال المسلمين، فهي قاعدة وضعها الخليفة، وسار عليها من تبعه من الحكام، ولم يكن لأحدٍ يستطيع أن يلغي أو يغير شيئاً مما وُضع قبل عقود.

ولكن هناك نواميس كونية وقواعد ثابتة وضعها الله عز وجل، لا تتبدل ولا تتغير، مهما تغير الزمان والمكان، حتى لو تغير البشر، منها أنه بعد كل ليلٍ فجر جديد، وبعد كل عسرٍ يسر، وبعد كل ارتفاع سقوط، ولكل شيء إذا ما تم نقصان.

السفينة ٦

صوَّب إياد وأليس بصريهما في عجالة تجاه الصوت الدخيل، فلم يجدا سوى صاحب الابتسامة المستفزة، نظرا إليه في اشمئزاز، متذكرين تلك الابتسامة القذرة، وهو يوزع الطعام على الوجوه الميتة.

وكأنه فهم ما يجول في خاطرهما، بدأ الحديث مباشرة فقال:

- أنا من ميانمار التي كانت تعيش في سلام مع جميع المعتقدات، والمُتمسكة بدينها كل التمسك، مما جعل أناس كثر يعتنقون مُعتقداتنا، ليس إجباراً، ولكن لما رأوه من أخلاق المسلمين في تعاملهم في كل شيء، وهذا ما أغضب عتاة البوذيين، عندما انتشر هذا الدين جُنَّ جنونهم، وحاولوا بشتى الطرق منع أهل قريتي من إقامة الشعائر الدينية، من صلاة وصيام، وحتى ذبح الأضاحي في أعيادنا، وكانت حجتهم أن الصلاة تعوق العمال عن أعمالهم، وأما الأضاحي فهم يرونها قسوة على تلك المخلوقات البريئة، وما يجعلك تصاب بالهوس والعته، أنهم أجبروا البعض منا على أكل لحم الخنزير، أليس الخنزير حيواناً بريئاً؟

- بل وتردى بهم الحال إلى إجبارنا على حضور الخطب البوذية، لعلنا نندمج معهم في دينهم، ولكن هذا لم يحدث أبداً، بل زاد تمسك الناس بشعائرهم ومعتقداتهم، التي يعتقدون بها، إيماناً بصحتها وصدقها، لا

لولادتهم عليها. فكان السجن والقتل والسحل في انتظار معظم سكان القرية، خاصة الشباب.

كانت هذه الكلمات الممزوجة بدموع المتحدث كفيلة أن تُلين قلبي المُستمعين لذلك المُتلصص ذي الابتسامة المستفزة، التي لم تختف حتى تلك اللحظة.

- أبعد كل ما خرج من فيك، وتبتسم مثل هذه الابتسامة؟؟ كيف؟؟

قالتها أليس، بعد لحظات صمته التي حاول فيها استرجاع عقله من ذكرياته السحيقة المدفونة في غياهب عقله.

استمر في التحدث رغم تجاهله الرد على سؤال أليس فقال:

- حياة القبيلة لم تعد كما كانت، كل شيء فيها مات، حتى تلك الروح التي حلَّقت كثيراً فوق رؤوسنا ببراءة تبث الأمل فينا رحلت، والأحلام الوردية أضحت محاطة بالأشواك، والأماني غاصت في وحل وبرك الدماء.

بعد تلك الأحداث قام الملك بوداوبايا بالقبض على أشهر أربعة أئمة في القرية، وحاول إجبارهم على أكل لحم الخنزير، ولكنهم رفضوا، فأعدمهم جميعاً، لعصيانهم أمره أمام أعين الجميع.

هجم شعور التقيؤ على أليس، فذهبت مُهرولةً إلى حافة السفينة، وأخرجت ما في جوفها من طعام فاسد من الأساس، هنا أشار إياد إلى

الشاب بالاستكمال بعد لحظات التوقف للاطمئنان على أليس، التي لم تعود إليهم مرة أخرى.

استأنف قائلاً:

- كانت هذه الحركة بمثابة الضوء الأخضر من الملك للبوذيين، كي يفعلوا ما يحلوا لهم مع مسلمي قريتنا البؤساء، فهجم البوذيون على أملاكنا وشركاتنا منازلنا، فأحرقوها بمن فيها من رجال ونساء، حتى الأطفال لم يروا رحمة منهم، لتظهر جثثهم المحروقة في كل أركان القرية، وتطفوا فوق مياه الأنهار والبحار، ففي يوم واحد تم حرق ٤٠٠ منزل، وقتلوا ٢٠٠ من البشر، ودمروا ١٢ مسجداً، منها مسجد هانثا، ومسجد آخر أحرقوه بمن فيه من المُصلين، ومن نجا من الحرق، لم ينج من الغوغائيين الواقفين حول المسجد، فمات ضرباً وتعذيباً.

عادت أليس لمكانها، ولكنا لم تتفوه بكلمة، ولن تتفوه لصدمتها وانغماسها في كل ما حدث معها في ماضيها الكريه، وما يحدث على متن هذه السفينة، وما يصل إلى أذنها كل لحظة ممن يجلسون معها، فتمنت لو كانت مساحة تخزين العقل للمواقف والذكريات محدودة، كي لا يتم حشو المزيد من الأحداث المفجعة، فيزيد الألم معها. قفز إلى عقلها سؤال أجبر عقلها على نسيان أي شيء:

أهل تستحق الحياة كل ما يفعلوه بنا؟ كل هذه الصراعات والدماء، والظلم وصرخات الأطفال من أجل ماذا؟، السلطة والمال؟؟ ..

وماذا بعد أن يحصلوا على المال، ويتقلدون المناصب؟؟، هل هم سعداء؟، هل ينامون وأعينهم مغلقة وقلوبهم هانئة بهذا النوم؟ أم هل تغمر الراحة ضمائرهم؟؟

وإذا كانت الإجابة نعم، فأين ذهب فرعون وقارون؟؟

والنمرود وكل من ملك كثيراً في تلك الأرض؟؟

هل أنتِ بخير؟ أليس .. أليس .. أين ذهبتِ؟؟

صفعت كلمات إياد عقلها، ليعود مرة أخرى لمتن السفينة.

قالت في شرود:

- نعم أنا بخير.. ثم رددتها أنا بخير، وكررتها، وأخذ صوتها ينخفض تدريجياً، وكأنها تغوص من جديد في حقل أفكارها المُلتهبة وتساؤلاتها المُتكاثرة، والتي لن يُجيب عليها أحد.

حاول إياد أن يتعرف على محدِّثه فسأله:

- ما اسمك؟

قال:

- أحمد.

قال إياد:

- وكم تبلغ من العمر يا أحمد؟

أجاب أحمد بطلاقة:

- ٢٧ عاماً.

قال إياد:

- وكيف عرفت كل تلك المعلومات، وأنت لم تصل إلى الثلاثين عاماً؟؟.

قال أحمد بعد أن غاص من جديد في مستنقع ذكرياته، ليحصد المزيد منها، فيطعمها لعقل إياد:

- بعد كل تلك الأفعال الشنيعة التي قام بها البوذيون من حرق وقتل وتدمير للإنسان، الذي كرمه الله بكل شيء، وبعد أن عاثوا في الأرض فساداً وإفساداً، تحملت طاقات أهل القرية ما يمكنه تحمله، ولكن هم في النهاية بشر، فنفدت طاقتهم، واضطروا مجبرين على ترك منازلهم التي تربوا فيها، ليقوم البوذيون بحرقها جميعاً، وخلعوا عنهم ذكرياتهم، ولم يبق لهم سوى ذكريات دمار وقتل وتشريد، تركوا كل شيء حتى تلك الأوراق، التي تثبت هويتهم، تلك الأوراق التي أضحي الإنسان بدونها لا شيء، بدونها لن يكون لك حق في التعليم أو السفر، بل لن يكون لك حق في

الحياة، فأنت في عيونهم ورقة، إن فقدتها ستكون غير موجود على كوكب الأرض، وإن كان جسدك مُنتصباً نُصب أعينهم.

لاحظ إياد بعض التشنجات التي بدأت في الظهور على أطراف أحمد، فحاول تهدئته فقال:

- ولماذا تت .....

قاطعة أحمد في عنف، وبصوت متحشرج مملوء بالأوجاع قائلاً:

- من فضلك، دعني أكمل ما بدأته، ولا تقاطعني حتى أُنهيه.

أشار إليه إياد أن اهدأ، واستكمل ما بدأت.

استلم الحديث مرة أخرى فقال:

- ظل الوضع هكذا، نسير من مكان لآخر، لنهرب من بطشهم، حتى حل علينا الرئيس البورمي (ثين) في عام ٢٠١٢ بكلماته، التي زادت الطين بلة، حين قال:

- "الحل الوحيد المتاح لأقلية الروهينجا غير المعترف بهم، هو تجميعهم في معسكرات لاجئين أو طردهم من البلاد، لكونهم ليسوا في عداد المواطنين".

وذلك بعدما حرقوا أوراقهم بالطبع.

هذه الكلمة هي القشة التي قسمت ظهر البعير، والشرارة التي أحرقت الحقول، والقطرة التي أغرقت البلاد في سيول من الدماء، لم تجف منها حتى الآن.

زادت كلماته البوذيين توحشاً وإجراماً، فكثر قتل وسحل وتدمير أبناء الأقلية المسلمة في كل مكان، فأُجبرنا على الذهاب للمخيمات، حقناً للمزيد من دمائنا، وعندما وصلنا، لم يكن هناك لا طعام يكفي، ولا شراب يفيض، ولكن النفع الوحيد الذي كان يحدث هناك، هو جلسات يقوم بها الكبار، حيث يجتمعون فيها مع الصغار والشباب لتوعيتهم بما يحدث لهم، وحثهم على مواصلة المسير، وعدم اليأس، وأن يموتوا على قضيتهم بكرامة وعزة، خير لهم من أن يعيشوا على الفرش الوثيرة والموائد الكثيرة، منزوعي الكرامة ومسلوبي الإرادة، يجتمعون بنا ليل نهار يقصون علينا كل ما حدث منذ البداية، دون كلل أو ملل، حتى لا ننسى حقنا في تلك الحياة، التي منحنا الله إياها، وأن حقنا هذا لن يسلبه أحد منا، فلن يضيع حق وراءه مُطالب.

مرت أربعة أعوام حتى وصلنا إلى ٢٠١٦، لم يتحمل شباب قريتنا كل تلك المجازر، فكوَّنوا جماعات مسلحة وأطلقوا عليها (جيش أراكان لإنقاذ الروهينجا)، فشنوا هجمات واسعة ضد مراكز الشرطة، التي تقتل الروهينجا أينما رأتهم في ضوء النهار، بقلب قاتم بارد نُزعت منه الرحمة.

استخدم جيش أراكان أسلحة قمة في البدائية، كالسكاكين وغيرها، فرد عليهم جيش النظام بالقنابل الحارقة، والأسلحة الكيماوية التي أصابتنا بالتشوهات والتشنجات كما في حالتي.

الأندلس ٥

بعد وفاة الحاكم، استمر حال الدور بين منوال السقوط تارة، والارتفاع تارة أخرى، على قدر اهتمام الحاكم بالعلم، ولكن بالطبع، لم تأت فترة أخرى، مثلما كانت في عهد المؤسسين الأوائل (الحكم ومحمد) وتابعيهم.

دام الوضع هكذا حتى أتت فترة حكام الطوائف في الأندلس؛ حيث لم ينشغل الحكام سوى بهذا الكرسي المزخرف، وصُبَّ جُلَّ اهتمامهم وتجمدت أعينهم، وتشبثت قلوبهم بعروش وهمية، وسلطة هلامية، لا تدوم لأحد، وبالطبع كانت النتيجة الطبيعية للدور، هي الاندثار والاختفاء، مثلما اندثر الدين من قلوب الناس، ولكن الله، عز وجل، سخَّر عائلة صغيرة، هي من تبنت إقامة الدور على قدر طاقتهم، حاولوا بشتى الطرق إعادة وضع اللَّبِنَات في مكانها الصحيح، حتى يعود الصرح الذي يساعد على بناء الأمجاد مرة أخرى شامخاً.

عائلة غازي التي منَّ الله عليها بالذرية الكثيرة، من بنين وإناث، فاستخدمهم الجد الكبير في إعادة هيكلة البناء وترميمه من جديد، سار غازي كما سار الأولون من الخفاء؛ حيث عامة الناس في تلك الفترة كانوا يسخرون من أولئك الذين ينادون بالعودة للقراءة والكتابة، والاهتمام

بالعلم، كانوا يرونها مضيعة للوقت، بل إن هناك فئة كانت تنعتهم بالرجعيين البكَّائين على الأطلال، فلم يتركوهم لحالهم، بل حاربوهم.

فذات يوم مرَّ آيس بن معاذ على غازي، وكان يجلس مع مجموعة من الأطفال، مُتَحَلِّقِينَ في إحدى الحدائق العامة، يتدارسون كتاباً عن تاريخ الأمم، فقال له مستهزئاً:

- أيا غازي بالله عليك، أخبرني ماذا تفعل؟

قال غازي في صرامة:

- أفعل مثلما فعل معي أبي وأجدادي.

- وما الجدوى من أن أجلس على مجموعة من الأوراق، لأسجن نفسي داخلها وأهدر وقتي، في حين أني قد استخدمه كي استمتع بحياتي؟

قال له غازي، وقد كظم غيظه بصعوبة:

- لو أن أجدادي لم يَتَحَلَّقوا ويجلسوا مثل تلك الجلسات التي تسخر أنت منها بكل سلاسة، وتُسَفِّهُ منها، لم يكن لك من الأساس إلا أن تكون عبداً عند الأعاجم، الذين تشاركهم مجالسهم الآن نداً بند، ولولا تلك الحلقات لما كنت ترتدي ذلك الرداء، وتتعطر بهذه العطور، ولولاها لما كنت واقفاً هكذا تستمتع بوقتك وحياتك بكل حرية، دون قيد، ولولاها لكان مكانك الآن في الصحراء ترعى أغنام من تتباهى بصحبتهم، ولولاها أيضاً لما كنت

تستطيع أن تتفوه بكلمة واحدة إلا والسياط كانت في انتظارك، ولولاها لكان الأعداء يتحكمون فيك، وما كان منك إلا أن تذعن لكل مطالبهم ولولاها لكان.....

لم يكمل غازي جملته إلا وقد رأى أمامه شيطاناً، فاحت رائحة الفحم المحترق منه بعد هروبه.

استمر غازي في نشاطه، ولكنه بدا كغريب في عالم لا ينتمي إليه، أحياناً لا ينظر إليه أحد، وأحياناً يقدم الناس العطف إليه، وفي أكثر الأوقات، لا يجد إلا السخرية منه، والاستهزاء من أفعاله التي ارتدت ثوب التخلف في أعينهم وقت ذاك.

مات غازي وتناول المهمة من بعده ولده حمزة، الذي أحرز تقدماً ملحوظاً في المهمة، التي ورثها عن والده، ليخلفه ابنه يعقوب، الذي ما إن مسك زمام الأمور حتى شرع في تدوين تاريخ دور القراءة، كما علمه من أجداده.

الأهواز٣

- إن هذا الجزء من العالم، لم يخضع لحكم حاكم غير عربي، إلا في فترات قصيرة جدا، لم تخلُ من الثورات والانتفاضات ضد المحتلين، فكانت دماء أبطاله ورجاله مبعثرة في كل بقعة، وحبات الرمال كانت تتلهف وتتسابق لوضع قطرة دم هذا البطل أو ذاك وساماً على صدرها، لتتحاكى وتفتخر أمام مثيلتها، لكن أعداءنا يستميتون لتغيير هذه الحقيقة، التي تلحق المرارة بحلوقهم.

أنهى أستاذنا هذه الكلمات، فانسالت دموع، اجتهد كثير ليخفيها عنَّا، مما جعلني وجعل باقي أقراني ندخل في نحيب متواصل.

فاستأنف الحديث قائلاً:

- لا تبكوا، فإن وقت البكاء لم يحن بعد، ثم استأنف الكلام:

- إن بلادنا تتمتع بكثير من المميزات والثروات، التي تجعل الأعين تتربص بها، والعقول تمكر وتخطط لها، في بداية القرن الماضي تم اكتشاف البترول، تلك المادة الخام، والتي أحب أن أسميها (الذهب الأسود)، المادة التي تتلاعب بمصائر الشعوب، فتشعل الحروب وتوقفها بكل أنواعها، سواء اقتصادية أو تجارية أو حتى ذرية، أما الأرض الزراعية، فكانت الخصوبة تتراقص بها طرباً، لوجود نهر الكارون على الخليج العربي، مما

جعل هذه البقعة من الأرض تغطي ما يقرب من ٨٠٪ من صادرات إيران، حيث قال الرئيس السابق لإيران محمد خاتم:

(باخوزستان زنده إست إيران) والتي تعني إيران تعيش بخوزستان، وتتمتع أيضاً بمجرى ماء عظيم، وهو نهر الكارون، فبإنشاء السكك الحديدية، وشق قناة السويس في مصر، أصبحت للمنطقة أهمية كبري بما فيها الأهواز.

كل هذه الميزات والخصائص، جعلت بلادنا مطمعاً للغزاة البريطانيين، الذين يخشون قوة بلادنا (فترة الدولة الكعبية)، فأعطت الشارة الخضراء لإيران للقضاء على قوة الدولة الكعبية بقيادة خزعبل، فسيطرت عليه إيران.

الأهواز٤

قطع الأستاذ كلامه، وفاضت عيناه بدمع منهمر، وكأنه في تلك اللحظة، قام بالعمل الذي أقسم منذ صغره على تأديته بأكمل وجه، شعر وأن رسالته في الحياة قد انتهت.

انهالت أسئلة كثيرة عليه من الطلاب، وكنت أنا البادئ الأول.

- ولكننا لم ندرس أياً مما قلت في الكتب المدرسة؟؟

قال الأستاذ:

- بالفعل، حيث إن تاريخنا تم تزويره كي يطمسوه عنا، ونخلع عباءة الماضي، فتخرج لنا أجيال منسلخة، لا تعرف عن ماضيها شيئاً، يسهل العبث بعقولها الفارغة.

قال آخر:

- ولماذا يفعلون كل هذا؟

أجاب الأستاذ بسهولة:

- سوف أروي لك قصة صغيرة، حين انتهى منها لن تحتاج إلى إجابة مني على سؤالك.

كان هناك أخان يعيشان في قرية غنية بالزراعة، كل منهما له أرضه الخاصة به، يزرعها ويحصد ما زرعه، ليبيع جزءاً، ويبقي آخر له ولأولاده الصغار، وكان هذا الرجل في قمة رضاه وسعادته بما منحه الله إياه.

وفي يوم من الأيام جاء الأخ الأكبر، وسلب من أخيه أرضه عنوة، ولما اعترض، اقتاده بعيداً عن الأعين، وقتله وألقى جثته في النهر، ولم يعلم أحد عن ذلك شيئاً، بعد فترة ماتت زوجة أخيه قهراً وحزناً على زوجها، وأطفالها الذين يُتِّموا قبل أن يداعب نور الحياة أعينهم، وقبل أن تُدفئ أشعة الشمس جلودهم.

عاش الأطفال في كنف عمهم القاتل، الذي أخبرهم منذ الصغر، أنه والدهم الذي رباهم وسهر على راحتهم، فشب الأطفال على حب عمهم القاتل، الذي محا تاريخهم، ووضع مكانه تاريخاً يجعل ناصيته شديدة البياض.

وهذا هو ما يفعلوه معنا، يزورون التاريخ ما استطاعوا، وإن عجزوا عن ذلك، نظروا إلى تلك الشخصيات العظيمة التي لها باع كبير في مسيرة نجاح أمتنا، وشرعوا يشوهون صورتهم في أعين أحفادهم، فيذكرون مساوئ لم يكن لها وجود، أو يدخلون أشياء كي يبطلوا ما هو مُسَلَّمٌ به من القواعد، مما يجعل النشء الصاعد مهزوز التاريخ، مذبذب القيم، مضطرب العقيدة،

يعيش بلا هوية، يقلد ما يراه، دون مراعاة لشيء، وعندما يبلغون من العمر ما يمكِّنهم من بناء الأمة، تجد عقولهم خاوية، وقلوبهم تشبعت بحب الشهوات، وأفعالهم لم تختلف عن طفولتهم سوى درجة.

سوريا ٣

- بعد ذلك انزلقت بلادنا في سيول من الدماء والأشلاء، التي اعتادت أعيننا على رؤيتها، منذ أن نفتحها في الصباح، وحتى نغلقها مجدداً في المساء، لنغرق في شلَّال من الكوابيس، التي لا تنتهي، لتكمل ما أوقفه النوم عنا في عالم الواقع.

ثم انزلقت في بئر الهجرة غير الشرعية، واللجوء السياسي إلى دول العالم، وخاصة دول أوروبا، هرباً من بطش الظالمين، وألم الجوع، وأنين الجرحى، وعويل الأرامل واليتامى، حتى أصبحنا نتسول الحياة من هذه الدول، التي تدعو العالم إلى احترام حياة الإنسان، مهما كان لونه وجنسه، ولكني عندما ذهبت معهم، أدركت أنهم لم يكونوا يقصدون الإنسان المسلم.

بكل بساطة كان هذا هو أخي محمد، شاب في مقتبل العمر، يحمل لنا من المشاعر ما إن وُزِّعَ على من في الأرض لفاض منه وكفى، كما إنه يكن عشقاً لدينه يسع الكون الفسيح ويزيد.

بعدما اشتعلت الثورة في سوريا كان محمد، ممن دعا إلى قيامها ضد الظلم والطغيان، اللذين عانينا منهما عقوداً، ولكن بطش النظام، لم يترك خياراً لأولئك الشباب، حين رفعوا أصواتهم عالية خفَّاقة، كانت أصوات الرصاص أعلى وأقوى من حناجرهم، فسالت دماؤهم على التراب

فقدسته، وحُبست أجسادهم في السجن فطهرته، ورُفعت الأيادي عالية خَفَّاقَة، آناء الليل وأطراف النهار، تدعو الله بالنجاة من الظالمين، حتى تكوَّن الجيش السوري الحر من الشباب الحر، والمنشقين عن جيش النظام، بعدما أشعلت رائحة الدماء، والظلم مشاعر القهر بداخلهم.

وكأن النظام الذي قامت ضده الثورة، قد جُنَّ فحاربهم بالأسلحة الكيماوية تارة، والبيلوجية تارة أخرى، حتى مات الرجال والنساء، قبل الأطفال، اختناقاً، وجابت صورهم مواقع التواصل الاجتماعي (السوشيال ميديا)، مما أغضب العالم بأسره عامة، والجماعات الإسلامية خاصة، التي دعت إلى الجهاد في سبيل اللهّ، ورفعت رايته ضد قتلة الأطفال والنساء.

ولاقت تِرحاباً كبيراً بين الشباب، ظناً منهم، أن الجهاد في تلك الفترة هو الخلاص من هؤلاء القتلة الفجرة.

فترك محمد الجيش السوري الحر، وانضم إليهم، بعد أن قُتِلَ من زملائه مَنْ قُتِلَ وحُبِسَ وعُذِّبَ مَنْ عُذِّب.

تَعَلَّمَ أخي حمل السلاح، وانزلقت قدمه إلى تلك الحفرة، التي حُفرت له ولأمثاله، حُفرة "الجهاد في سبيل الله، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله"، وحفرة "أن نترك الأسباب، وننظر إلى الله، وهو مسبب الأسباب، وهو إذا كان معنا، فمن علينا"، حتى وصلوا إلى تلك الحفرة

العميقة، التي كتب في أسفل أعماقها "نحن عباد الله المخلصين المُصطفين من كل كوكب الأرض، نحن على الصواب، وكل هؤلاء على الخطأ، ومُعاونون للكفر والكافرين".

وتاه أخي في ذلك الجُب، ولم أعلم عنه شيئاً، وهو الذي كان لي كل شيء، بل أغلى شيء، تاه، وتاه معه حضنه الرقيق، ولمساته الحانية، وكلامه المعسول، تاه، ولا أعلم عنه شيئاً منذ أن لجأنا إلى المجر، ثم تم طردنا منها، فما أصعب أن تترك خلفك من تحب!!، وأن لا تدري هل هو ميت أم مازال يدب بقدميه على ألا رض؟؟.

المدير ٦

قفز مُسرعاً من جوار تينا، وكأنه توصل أخيراً إلى طوق النجاة كي ينقذه من الموت، قبض على الهاتف بكلتا يديه، وطلب رقماً تمنى الاتصال به منذ زمن، تكلم بسرعة قبل أن يخرج صوتاً من الجانب الآخر قائلاً:

- لقد وجدنا **j25**.

الشريحة ٦

وضع جوزيف يده اليمنى أسفل رأسه من الخلف، وأخذ يضغط، وكأنه يبحث عن شيء.

قالت ماري بتعجب:

- ماذا تفعل يا جوزيف؟

لم يتجاوب عقله مع سؤالها، بل إنه لم ينتبه لصوتها من الأساس، وظل يعبث بيده في رأسه، حتى شعر بها، شيء صغير الحجم، موجود أسفل مؤخرة رأسه تحديداً، هرول تجاه المطبخ كالمجنون، وشرع يبحث في أدراجه بهلع.

فزعت ماري بقوة، ولم تستطع أن تفعل شيئاً، لكنها أدركت أن هناك خطباً كبيراً يحدث بفضل الدفتر الصغير، فتركته يفعل ما يشاء، فلن يستطيع أن يوقفه أحد الآن، ثم ذهبت إلى حيث ألقى الدفتر.

فتح أحد الأدراج فوجد مبتغاه، سكيناً صغيراً، لمع نصله بعينيه، قبض عليه بقوة، وأسرع تجاه الحمام، وقف أمام المرآة والإصرار والحزم يكسوان وجهه، أما ملامحه فهي كفيلة بأن تفزع الرضيع في بطن أمه، فبشرته البيضاء تحولت للأحمر القاني، لكثرة الدماء التي تغلي في رأسه، وعيناه كانتا تخرجان

شرراً، وحاجباه عقدا بقسوة، وكأنهما التصقا ليصيرا حاجباً واحداً، نظراته التي تبث غضباً تقول إنه لا قِبل لأحد أن يواجهه.

نظر للسكين الذي بيده اليمنى، وهو يلمع كالذهب، رفع يده اليسرى لأعلى حتى وصلت أسفل مؤخرة رأسه، تحسسها بأنامله حتى شعر بها مجدداً، فاطمأن وتحلى بكل أنواع الشجاعة، ورفع يده اليمنى لأعلى لتجاور أختها، ثم غرس نصل السكين في رأسه، فخرج فيضان من الدماء، انتشر في كل مكان، حينها أتت ماري كي تطمئن عليه، وبقبضتها الدفتر، وحين رأت سيل الدماء، فقدت وعيها، ووقعت مغشياً عليها بعد أن أخرجت صرخة مكتومة، أما هو فلم يكن أمامه خيار سوى استمرار السكين ينخر داخل رأسه.

عندما لامس السكين الشريحة، أخذ عقله، يبث ذكريات قديمة مع ذكرياته التي قرأها في الدفتر، بالإضافة إلى واقعه منذ استفاقته في المستشفى، فاختلطت ذكرياته جميعاً، فعصر الألم رأسه، وبات على وشك الانفجار، ومع ذلك لم يتوقف لحظة، مازال ينخر بالسكين في مؤخرة رأسه، فانقض عليها بوخزة قوية حتى أخرجها، وما إن رأتها عيناه حتى استلقى على الأرض، بجوار ماري فاقداً الوعي.

****

فاقت ماري بعد أن أغشي عليها، لتجد جوزيف ملقى على الأرض بجوارها، سابحاً في دمائه الدافئة، امتلأت عيناها بالذعر الشديد، فشرعت يديها في الارتعاش، وفقدت السيطرة عليها.

بصعوبة حملتها قدماها المهزوزتان، وأحضرت بعض الملابس، وقامت بتمزيقها بالطول، لتطويق رقبة جوزيف لإيقاف سيل الدماء المنهمر من مؤخرة رأسه، بعد أن طهرت الجرح، حاولت حمله، فرفعت رأسه للأمام وأسندتها على ركبتها اليسرى، وبدأت في رفع الذراعين ليخرج منها صرخة مدوية، لم تستطع كتمانها، هذه المرة حين رأت نصل السكين قد غرز في يديه، وخرج من الناحية الأخرى، فأدركت أن السكين قد سقط من يده، ليسقط هو عليه، وينغرس بتلك الطريقة البشعة.

لم تقوَ ماري على نزع نصل السكين من كفه، ولكن لم تكن هناك أي طريقة غيرها، وضعت قطعة كبيرة من القماش في فمها، وضغطت عليها بشدة، ثم جلست بجوار يد جوزيف المجروحة، ووضعتها على ركبتها اليمنى مغمضة العينين، وبيد مهتزة قبضت على يد السكين، فزادت رعشتها، لتتساقط دموعها كشلالات الغابات الاستوائية، وارتفع صوت نحيبها جزعاً، بدأت بسحب السكين لإخراجه من يديه، وسط دموع وصرخات مكتومة مزقت القماش في فمها، خرج السكين ومعه خرجت روحها،

وانفجر مع خروجها بركان آخر من دماء جوزيف، وضعت عليه قطعاً من القماش، لتوقف سيلان الدماء، ثم أحضرت وسادة ووضعتها، أسفل رأسه وأراحتها عليها.

عندما شعرت بانتظام ضربات قلبه وحالة التنفس توجهت مباشرة إلى الحمام، وبدلت ملابسها التي تحوَّلت لكتلة من الدماء، ثم تركت الشقة وخرجت.

****

في تلك الآونة، بدأ جوزيف في استعادة وعيه ببطء مرة أخرى، لم يأبه بشيء مما حدث، لا بمؤخرة رأسه أو حتى يده المثقوبة، ولا بحر الدماء الغارق فيه، وشرع في البحث عن الشريحة، فلم يجدها، كالمجنون التائه قام من مكانه، وشرع يبحث عنها، وسط برك الدماء المتجلطة، ولكن دون جدوى، نظر حوله في كل مكان، وضع يده على مؤخرة رأسه، ومزق قطع القماش الملفوف حولها، بلهفة شديدة حتى يتأكد أنها خرجت من مكانها، ثم دس أصابعه داخل الفتحة في مؤخرة رأسه، باحثاً عن الشريحة، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل أيضاً، نظر حوله فتذكر ماري، أين هي الآن؟

وبصوت مبحوح باهت لم يعبر أذنه، نطق اسمها، ولكن لا أمل، يبدو أنها هربت!!، بالفعل هربت، فلماذا فتاة مثلها تضع مستقبلها على المحك لأجل

قاتل مثلى؟، إنهم المركز هم من أرسلوها كي تفعل كل هذا وتعثر على الشريحة وتحضرها لهم.

ما الذى حدث لك؟ لماذا مزقت القماش هكذا؟ هل أنت بخير جوزيف؟

قالت ذلك، ثم هرولت إليه، وتركت الحقيبة من يديها.

نظر إليها في ذهول بالغ، ولم ينطق بحرف، ظلت تداوي جراحه من جديد، دون أن يتوقف فمها عن الحديث، فقالت:

بعد أن وضعت الضمادات على جروحك، خرجت لأحضر لك بعض العصائر لتعوض تلك الدماء التي نزفتها، ولقد وجدت ما تبحث عنه، ووضعته هناك أعلى الطاولة.

قامت من مكانها لتحضر الشريحة، لكنه أوقفها بإشارة من يديه، وبتباطؤ قام من مكانه وأحضرها، وظل يؤنب نفسه على اتهام ماري بتلك الاتهامات، فهي من أنقذته من الموت مرتين، الأولى عندما هرَّبته من المستشفى، والثانية عندما أوقفت سيل دمائه الفياض.

قال في حزم:

- لا بد أن نهرب من هنا.

السفينة ٧

السفينة في بداية يومها، هبَّ عليها هدوء تام كغير المعتاد، وبدا على الجميع الانغماس في وحل ذكريات أليمة، تعصف بعقولهم لقسوتها، أو ذكريات جميلة تعصر قلوبهم على فقد من شاركهم في صنعها، فتارة تجد شخصاً يضحك ضحكات هستيرية، وبعد لحظات تتحول هذه الضحكات إلى بكاء وعويل، عندما يهبط اليقين في مطار عقله، بأن ما حلق في خاطره، ما هو إلا ذكرى، لن تعود مرة أخرى.

في تلك اللحظات متقلبة المشاعر أتت فتاة، ومعها شاب وزجاجات البيرة تتدلى من أيديهم، وأجسادهم تترنح يميناً ويساراً، أخذوا يحملقون تجاه ذلك الجمع الشاذ عن باقي السفينة، الذي سرمد عليه الصمت حتى لا يجذب إليهم أنظار باقي المخمورين بسكر الخمر أو سكر الحياة، لكن الفتاة نظرت إلى ذلك الشاب الأوروبي، وهي تصرخ ضاحكة ثم قالت:

- حتى أنت أيها الأوروبي تجمعت معنا على تلك السفينة العفنة، التي تعج بمئات الأشخاص، الذين تسبونهم وتشبهونهم بالأغنام، فتُحِلُّونَ دماءهم وتفترشون نساءهم.

استيقظ الخاملون، وفاق الشاردون، وبدأت الأنظار تفتك بهذا الجمع، خاصة ذلك الأشقر ذي العينين الخضراوين، فقال أحدهم:

- اقتلوه فو الله هو وأمثاله سبب ما تمر به بلادنا من تدمير وقتل.

وقال آخر:

- نحن نمرض بأدويتكم المسرطنة، لتنعموا بالحياة، وأمهاتنا تنظف أرجل آبائكم.

فتعالت الأصوات، وكثرت الكلمات التي تشج قلبه إرباً هو ومن معه؛ لأنهم يعلمون أن كل ما قيل، وكل ما سيقال هو عين الصواب وقلب الحقيقة، لكنهم لا يعلمون أن السبب الذي جاء به هنا هو تلك الحروب، التي خاضها في كل الاتجاهات، كي يتم تخليص تلك البلاد من أيدي سجانيهم، كانت الاتهامات تلاحقه، لكنه لم يتمكن من إثبات أي دليل عليه، لحرصه الشديد، وإخفائه كل ما يمكن أن يدينه أمامهم.

كان يتجنب تذكر ذلك الجزء المُخبأ في أقصى مكان من ذاكرته، لشدة الألم الذي يشعر به حين تدب الروح في هذا المشهد، فيتحرك أمام عينيه من جديد.

لقد خانه أقرب الأقربين، وتمت إدانته والقبض عليه، وتم لهم ما أرادوا، لكنه استطاع الهرب منهم بمعجزة إلهية، بعد سنوات، وفر بعيداً إلى تلك السفينة، وهو يدرك أنهم سيتعقبونه لا محالة، إن لم يكونوا في أعقابه في تلك اللحظة.

فاق من شروده، الذي دام طويلاً على أيادٍ كثيرة تجذبه نحو حافة السفينة المتهالكة، واختلطت الصرخات بالصيحات، والتأهب يأكل وجوه من بالسفينة، والذين يتطلعون إلى ذلك المشهد، منتظرين النتيجة النهائية، وكأنهم لا زالوا طلاباً في الجامعة.

رُفع الأشقر إلى الأعلى، وأخذ ينظر إلى المحيط، وما ينتظره في قاعه العميق.

اخترق هذه الأصوات صوت أجش غليظ، تفوه بكلمة واحدة، قائلاً بلغه إنجليزية واضحة وضوح الشمس:

- **fight** (قتال).

وأخذ يكررها مرات ومرات، ليندمج صوت الجميع بصوته، الذي أيقظ كل أسماك المحيط، ثم ألصق كفه الأيمن بكفه الأيسر، وباعد كوعه الأيمن عن الأيسر لتبدوا كدائرة.

فهم الجميع ما يرنوا له، فألقوه على أرضية السفينة بقوة فتأوه، بدأ الناس يبتعدون عنه في شكل دائري، لتشكل حلبة المصارعة البشرية، التي تكونت مرات كثيرة أمام عينيه، لكنه حينها كان من ضمن المتفرجين، أما الآن فهو داخلها.

حلبة بشرية تُنسج حول اثنين لا يخرج منها إلا واحدٌ يتنفس، والآخر يكون مأواه أمعاء الأسماك.

لم يكن جو بالفتى الضعيف، لكنه لم يكن ليتخيل ذلك الموقف حتى في أسوأ كوابيسه التي عانقته في سجون بلاده، والتي هرب منها منذ أيام.

وقف في أحد أركان الحلبة البشرية، بعيداً عن تلك الفتحة التي لا بد وأن يسقط منها أحدهم، في الجهة الأخرى، انتصب ذلك الشاب صاحب الفتاة التي وضعته في هذا الموقف الصعب، لكنه لم يأبه بشيء لغياب عقله المخمور عن جسده المترنح.

وقف أمامه والغضب يشع من عينيه كنار ملتهبة، عُطلت كل أنظمة إطفاء الحرائق التي يمكن أن تطفئها، وتريد أن تلتهم من يقف في طريقها.

حدثه جو في هدوء قائلاً:

- أنا لا أريد قتال، وأنا لست الذي تريدون، وأنا....

لم يكمل جو كلماته حتى وجد نفسه ملتصقاً بأرضية السفينة مرة أخرى بلكمة من مُصارعه، فتعالت الصيحات المؤيدة لقتل جو الإرهابي، فتأكد أنه لا مفر من تلك المبارزة، أخذ وضع الاستعداد للقتال فتلقى لكمة أخرى أسالت الدماء من أنفه الصغير، ضغط جو على قبضتيه بقوة حتى قام، وبدأ النزال من جديد، تبادلا الضربات واللكمات بينهما، وتناثرت الدماء على

أجساد المتفرجين وملابسهم المهترئة، حتى قبض جو على رقبته وخنقه بشدة، كاد يموت بين يديه، بدأت أنفاسه في الانقطاع وصوته في التحشرج، فخرج إياد من بين الزحام قائلاً:

– لا تفعل هذا يا جو لا تكن مثلهم، وسط أنفاسه المتعالية، وقواه التي خارت، دفعه جو فوق الأرض، ولم يرمه للأسماك، كما هو مطلوب منه، ثم قال في غضب عارم، موجهاً كلامه لهؤلاء السكارى:

– أنا لست الذي تظنون، فتوي قضيت من عمري أعواماً، أدافع عنكم، وعن قضاياكم حتى كان السجن بيتي، والأرض مضجعي، والماء طعامي وشرابي إن وجد، ثم شرع في التقاط أنفاسه التي بدأت في الهروب من رئتيه.

أتى إليه إياد ودثره بغطاء طويل، وحاول إخراجه من الدائرة، لكن الناس لم يفسحوا، وظلت الدائرة مغلقة على جو، ومصارعه، وإياد الذي باغتهم بعبورها، فعاد الصوت الغليظ يتكلم قائلاً:

– تلك الدائرة لا يخرج منها إلا واحد يتنفس، ثم سكت.

تحرك بعضهم تجاه المُلقى على الأرض، ورفعوه لأعلى وقذفوه في المحيط، وسط صرخات جو وإياد الغاضبة.

قاده إياد بصعوبة بالغة، حتى وصل إلى مكانه وأجلسه برفق، بعد أن تفحص إصاباته سريعاً، ليطمئن عليه.

الأندلس ٦

كانت الأندلس تحت حكم دولة المرابطين العظيمة، والتي لها باع كبير، ودور مهم في نشر الإسلام في معظم دول إفريقيا، والذي اعتنقته دون حروب تذكر، ولكن كالعادة مع مرور السنين والعقود، بدأ عهد الدولة المرابطة في الاضمحلال، وغاب عنها الضوء، وحل محله الجهل والظلم والظلام، حينما انحرف حكامها عن الطريق، فأصبحت كالغنم التي لا يُهاجمها ذئب، إلا وهي شاردة عن القطيع، ولكن لم تلبث أن انقشع الظلام، الذي بدده نور دولة الموحدين، التي أعادت الانتصارات للإسلام، وأعادت له بعض المجد في فترة حكم (أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور)، وكما حدث بالأمس القريب مع دولة المرابطين، يحدث الآن مع دولة الموحدين، التي اعتلى الحكم فيها من لا يحارب باسم الله، بل يحارب لكسب المغانم والأنفال، وتوسيع رقعة حكمه، فذهب النور، وهبط الظلام، الذي لم يكن مثله ظلام في تلك البقعة، ظلام دامس، لم ير المسلمون بعده نوراً.

بعض الأسر والعائلات بدأت في الرحيل عن ذلك الظلام، فجمعوا حاجاتهم وأمتعتهم، فتصدى لهم الجنود القشتاليون الذين هزموا دولة الموحدين، ومنعوهم من مغادرة البلاد، وأرسلوهم في جماعات، إلى أماكن، قالوا إنها أماكن مخصصة، سوف يعيش فيها المسلمون بأمان، ومن أراد

البقاء فلن ينعم إلا بالحرية والمساواة مع الشعوب غير المسلمة، ذهب منهم من ذهب، وبقي من أراد العيش والموت في المكان الذي ترعرع فيه.

وكان من ضمن العائلات التي بقيت عائلة (غازي)، التي أبت الرحيل، أبت أن تترك هؤلاء الجنود القشتاليين، ينعمون بهذه الأرض، التي أريقت دماء آلاف المسلمين على ترابها فطهرته.

بدأ علي في إخفاء تاريخ المسلمين من كتب وعلوم ودراسات، سهر علماء المسلمين أعواماً كي ترى النور، وتصعد بأمة الإسلام إلى معالي الأمم، أول ما فعله نظر إلى مكتبة قرطبة، والتي تعد من كبرى مكتبات العالم في ذلك الوقت، ذهب إليها سراً، حيث لم ينشغل بها أحد، بسبب ما تمر به البلاد في هذه الآونة، وانشغل الجميع بالرحيل والنجاة بحياته.

أحضر علي أبناءه معه، والذين لم يتجاوز سن أكبرهم العشرين عاماً.

وقفوا أمام رفوف الكتب، التي بدت كالمقابر بعد أن رقد التراب فوق دفوفها ليُكفنها ويعلن وفاتها.

نزلت دمعة دافئة على خد الأب مسحها بسرعة، حتى لا يراها أبناؤه، ثم هجم على رفوف الكتب ليضعها في جوال كبير، وبسرعة البرق حُمّلت الأجولة بما يفوق قدرتها، وفر الجميع، مهرولين حتى لا يراهم أحد، وصلوا إلى المنزل بأنفاس متقطعة وأعصاب مضطربة، خشية أن يتعقبهم أحد

الجنود أو المندسين، فتكون المشانق لهم مصيراً، نزلوا إلى الأسفل ليجدوا الحفرة قد جهزت لحفظ الكتب، لمدة لا يعلمها إلا الله، ردمت الحفرة على الكتب التي كُفِّنت وغُلِّفتْ بأكياس بلاستيكية قوية لتحفظها داخل الصندوق الحديدي الكبير وأغلقت تماماً.

واحتفظ الأب بالمفتاح، وشرع في توريثه لأبنائه وأحفاده، وهذا ما تعلمه الفلسطينيون الآن، الذين يحملون مفاتيح منازلهم، التي لم يعد لها وجود أو أثر، وأصبحت مستوطنات يهودية، متيقنين من العودة مرة أخرى.

ومع مرور الأيام، حدث ما توقعه الأب، وكأن هو من وضع هذا السيناريو للقوات القشتالية، بدأوا بنقض عهودهم، التي أقسموا بكل مقدساتهم على عدم المساس بها يوماً.

كانت البداية عندما أمروا بترحيل بعض الأسر من منازلهم القريبة من كنيسة آيا صوفيا، والتي كانت ذات يوم مسجداً يصلي فيه الناس خمس صلوات، ويخطب فيه يوم الجمعة، ويتلى فيه القرآن ليل نهار، وذلك لبناء بعض الأديرة للرهبان والقساوسة، لم يمتلك أحد حق الاعتراض عليهم، وكيف يعترضون وهم لا حول لهم ولا قوة تحميهم من بطش القشتاليين؟؟، وخرجوا من منازلهم التي تربوا فيها صغاراً، والتي مات من أجل الحفاظ عليها آلاف المسلمين الشجعان، خرجوا مذلولين منكسرين،

رؤوسهم منكسة ورقابهم متدلية، ومع ذلك لم يتركهم جنود الاحتلال وشأنهم، ظلوا يطاردونهم أينما ذهبوا، ويضيقون عليهم الخناق، طالما أنهم يحملون تلك العقيدة في قلوبهم، أما من بقي في البلاد، فكان ولا بد أن يغير دينه، ويتنازل عنه كي يعش بينهم في سلام كاذب مزعوم، فحاولت بعض العائلات كتمان إسلامهم هم وأبناؤهم، ولكن هل كانوا ليتركونهم؟

كانت هناك دوريات متابعة، متتالية على جميع المنازل التي لها ماض في الإسلام، فمن يجدوا عنده مُصحفاً، أو من يكتشفوا أن لديها حجاباً تستتر به، يُنَكَّلُ بها، وحتى الأطفال (الصبيان)، لم يسلموا منهم، فكانوا يقومون في المدارس بعملية كشف الختان، ومن يجدوا ولده مختوناً، كانت محاكم التفتيش في انتظاره، وما أدراك ما محاكم التفتيش، التي حاول نابليون عندما احتل إسبانيا إلغاءها، وألغاها بالفعل في الأماكن التي سيطر عليها، ولكنها استمرت في الأماكن البعيدة عنه، حتى اقتحم عامة الشعب مقراتها، وحطموها، وسرقوا سجلاتها، ودمروا محتوياتها، ليكون آخر اضطهاد قامت به عم ١٨١٨.

****

كل فرد من عائلة غازي يعلم قصة المفتاح الذي يورث من جيل إلى آخر، حتى استطاع الجد الرابع (لجو) استعادة الكتب، بعد أن قام بشراء المكان الذي دفنت فيه، وأصبح الآن بيتاً جديداً.

اشترى المنزل بكل ما يحتويه، ولكنه ترك كل هذا، وتوجه مباشرة في تجاه قبوه، وشرع في التنقيب عن الكتب، وكأنه يبحث عن كنز تركه له أبوه، حلم كثيراً أن يقبض عليه بيده.

استمر في الحفر طويلاً، دون كلل، فظهرت بوادر الأكياس البلاستيكية، فازداد الحماس، وتسارعت أنفاسه لتصدر حشرجة في صدره، أهملها وزادت سرعة التنقيب، حتى تمكن أخيراً من إعادتها للحياة مرة أخرى فوق سطح الأرض، كي تتنفس هواء طلابها، وتستقر في أذهانهم، وتتداولها ألسنتهم، فتعلو عقولهم، وترفع أعلامهم خفَّاقة فوق كل عَلَمٍ.

أخرج الكتب، وقام بنسخها وطبعها على نفقته، بسرية تامة، في مطبعته الخاصة، واهتم اهتماماً بالغاً بالكتاب الذي يحمل تاريخ دور القراءة، الذي دوّنه جده يعقوب. أعاد الكتب للحياة بعد دفنها في تراب الأرض قروناً، وبنظامٍ جديدٍ بدأت دور القراءة تقوم بمهامها مرة أخرى في تطور وحذر شديدين، حتى لا يُحكم عليها بالإعدام، فتردم مرة أخرى، قبل أن تقوم بالمرجو منها.

ضم حفيد عائلة غازي كل من رأي فيه الخير، وتوسم فيه الصلاح، كما فعل المؤسسون الأوائل (الحكم ومحمد)، وقام بتأسيس ما يعرف بينهم بـ(جيل العودة).

قاموا بقراءة الكتب والعلوم مرة أخرى، حتى استطاعوا معرفة تاريخهم المجيد، وجهود أجدادهم، التي بذلت، والدماء التي أريقت، كي تصلهم تلك العلوم على أطباق من ذهب، وأول ما تعلموه أنه من يعيش بلا ماضٍ، كأنه يعيش مثل شخص فَقَدَ ذاكرته، فلا يستطيع التكيف مع الحاضر أو المستقبل، وتم بناء جيل قادر على المنافسة الشرسة بين سياسيي هذا العصر، الذين يبيحون استخدام كل الوسائل المُتاحة، وغير المتاحة للوصول إلى مآربهم.

- وهل انتشر جيل العودة في العالم؟

بادرت الياسمين بهذا السؤال من بين الحاضرين، فخطفت الأنظار من جو.

أجاب جو:

- بالفعل، والفضل يعود إلى الله، ولو لم ينتشر، لما كنت على متن تلك السفينة الآن.

فأضاف رجل الأهواز العجوز:

- وكيف كانت طريقتكم في التعامل مع أعدائكم؟

أضاف جو:

- الوسائل التي تعاملنا بها كانت أكثر تطوراً مما عمل به أجدادنا، كما كانت طرق أعدائنا أكثر تطوراً منا، ولكن هو توفيق الله.

سرنا على نهجهم ونحونا على آثار أقدام خططهم، فكنا نجند لهم جنداً منهم، دون علمهم، كما يفعلون معنا، حتى وصل جندنا إلى الوزراء والرؤساء، وعامة الشعب كنا نجعلهم يلهثون وراء تلك الشعارات البراقة مثل:

"حق الشعوب في تحرير مصائرهم، والحرية والمساواة والإخاء، ضد الإمبريالية (سيطرة الدولة الواحدة على العالم)"، حتى استخدمنا الليبرالية كي نضع أبناء الدولة الواحدة في مواجهة بعضهم البعض فينشغلون بمشكلاتهم عما يدور في بلادنا.

- ولكن بالتأكيد كانت هناك صعوبات واجهتكم فما هي؟

كانت هذا تساؤل إياد.

بسرعة ظهر التأكيد على وجه يوسف ثم قال:

- دون ريب يا إياد، فما سار أحدٌ في طريقنا إلا عُوُدِي، ولم يحمل أحد ما نحمل إلا أوذي.

- ولكن ما أصعب اختبار واجهكم؟

أضاف إياد.

قال يوسف:

- أبناء أوطاننا، فحين تُنشب حرب بيننا وبين إحدى الجهات فننشغل بها، فأبناء الوطن بعمالتهم أو بجهلهم في أغلب الأحيان، كانوا يفسدون جهوداً بُذلت فيها السنون، وأُريقت الدماء، وحبست أرواح خلف القضبان من أجل تحقيقها.

حتى ذلك الربيع المُسمى بالعربي، ما كان إلا خطوةً سبقَ بها أعداؤنا، وأغروا بها الشعوب-وخاصة الشباب- بكل ألوان الشعارات الرنانة كي يستخدموها بقلة وعي وتصرف.

فتقف العامة الجاهلة- وهم كثرة- ضد الشباب الواعي، دعاة تغير عباءة الماضي- وهم قلة- فينجرف المجتمع إلى هوة الرضا، بكل ألوان العذاب، ما عدا الثورة والتغير، فيكونوا بالمرصاد لكل أنواع التغير، ولو كان للأفضل.

سقوط الشباب، بحماسهم الجارف في تلك المصيدة كان عائقاً كبيراً لنا، مما أدى إلى تفرغ الأعداء والعملاء للبحث عن دعاة التغير، وكل من شارك في

ربيعهم، أياً كان انتماؤه، فحُبس من أعضائنا عدد لا بأس به، وفر الباقي إلى خارج بلادهم، مما أعاق حركتنا داخل تلك البلاد.

- من الجميل أن تعمل بهذه الطرق وتلك الأساليب، ولكن إن لم تُترجم إلى نتائج فلا أمل في نجاحها.

قذفها ذلك البورمي في وجهه ليس انتقاما منه، ولكن بسبب الظلم المستشري في كل بقاع الأرض الذي أذاقهم العلقم من الشراب.

استمع يوسف هذه الكلمات ثم قال:

- أنا أُقدر تلك الطريقة التي تحدثني بها، فما حكيت وعانيت يفلق الحجر، ولكني سوف أجيبك عما فعلناه في آخر خمس سنوات بعدما بذلنا ما في أجسادنا من طاقة لا تقدر بثمن. بعد الربيع العربي ظهرت كثير من المُشكلات التي أثرت على الرأي العام العالمي منها وأهمها مشكلة الهجرة غير الشرعية، والتي زادت عن الحد المسموح به عندهم، مما جعل بعض دول أوروبا تغلق الحدود في وجه المهاجرين وأخرى فتحت الحدود، ورحبت بالمهاجرين.

وهنا حاولنا استخدام تلك النقطة لصالحنا، فبدأنا بنشر دعوات تظاهر، تدعو لفتح الحدود ليس للمهاجرين، لكن للإنسانية، فأوروبا هي الرجل الأول المدافع عن الإنسانية في العالم، كما يدَّعون، كما قمنا ببث فكرة أن

أوروبا عانت كثيراً في الحرب العالمية الثانية من الهجرة، بسبب ما دمرته، فإننا لن نترك أحداً يعاني مما عانينا منه، كما أننا لن نترك أحدهم يقوم بصناعة هتلر جديد.

كان لهذه الدعوات أثر إيجابي في نفس العامة، مما جعله يؤثر على قرارات المسئولين، إما بالإيجاب فنستزيد، وإما بالسلب فنشعل النار، كما حدث مع إنجلترا.

- وماذا فعلتم في إنجلترا؟!!

قالتها أليس في تعجب من قوة، ومكر التخطيط الذي سمعته.

قال جو بعد لحظات تفكير:

نسبة ضخمة من الإنجليز كانوا يرفضون الهجرة والمهاجرين، ولكن المسئولين سمحوا للمهاجرين بالدخول، وكنا ندرك جيداً أن تلك الفترة لن تدوم، فقريباً سيغلقون الأبواب ويتم الترحيل الفوري لهم، شرط إنشاء معسكرات ومخيمات لهم خارج إنجلترا، وهو ما حدث حتى مع ألمانيا، الراعي الأول لاستقبال اللاجئين.

فقمنا ببث السم، ونشر فكرة انفصال إنجلترا عن الاتحاد الأوروبي كي يتم التخلص من مشكلة المهاجرين والتي يفرضها الاتحاد الأوروبي على الدول المشاركة فيه، وهو ما أوجد تأيداً كبيراً من قِبل كبار السن في

إنجلترا، الذين يدعون إلى الانغلاق، عكس الشباب الذين يسعون إلى الانفتاح، فبمجرد أن تخرج إنجلترا من الاتحاد الأوروبي، فلن يتمكن إنجليزي واحد من عبور الحدود إلى باقي دول أوروبا، دون تأشيرة، وعندها ستنشأ بعض العوائق، التي سنتفنن في استخدامها في المستقبل للحد من وحدتهم.

كما حدث مع بلادنا في الربيع العربي، حين استغلوا جهل الكبار واستكانتهم، مقابل حماسة الشباب واندفاعهم.

وبالفعل تم ما خططنا له حين قام رئيس الوزراء ديفيد كاميرون في يونيو ٢٠١٦، بعمل استفتاء للخروج من الاتحاد الأوروبي، فكانت النتيجة ٥١.٩٪ من البريطانيين يوافقون على الانفصال عن الاتحاد الأوروبي، واشتعلت إنجلترا، وبدأت الاتهامات تطول الجميع، ومن ثم يبدأ عملنا من هنا.

وتوالت الدعوات في دول أخرى، للانفصال، مثل السويد والدنمارك والمجر وفرنسا واسكتلندا، حتى برشلونة تريد الانفصال عن مدريد.

أما في أمريكا فكنا دعاةً نحو نجاح ترامب، كي يتربع على عرش العالم، وتُصبح أمريكا مجالاً للحديث في كل صغيرة وكبيرة، فعندما ينجح ترامب،

يكون الانقسام بين فئات المُجتمع كبيراً، وحين يدُب الانقسام، يأتي دورنا، ويكون من السهل اصطياد ما يمكن اصطياده.

وهو ما حدث في الواقع أيضاً، نجح ترامب، فظهرت لافتات تدعو إلى الثورة علانيةً، دون مواراة أو خوف، وشهدت البلاد حالات كبيرة من المشاكسات، واندلعت الحرائق في كثير من الولايات، حتى إن هناك ولايات خرجت عن السيطرة تماماً.

حاول إياد التحدث، فأوقفه جو بإشارته، أن دعني أكمل وستدرك كل شيء.

أكمل جو حديثه الذي جذب عقول الجميع وأبهرهم.

- حين تري تراشقاً بالألفاظ بين أمريكا وروسيا وكوريا الشمالية، فاعلم أن يداً لدينا تنخر في عششهم عن طريق قراصنتنا الإلكترونيين، فتارة نخترق أجهزة الدولة في أمريكا، فتُتهم روسيا وتارة نخترق روسيا، فتُتهم أمريكا.

- أما إذا وجدت الصين تتهم أمريكا باستفزازها لاختراق أمريكا بحر الصين الجنوبي تحت مسمى حرية الملاحة فنحن السبب.

- أما زعيم كوريا الشمالية المُحاصر من قِبل معظم دول العالم، فنحن نمده بالمال اللازم لاستكمال مشروعه النووي لاستفزاز أمريكا وإسرائيل.

- نحن نلعب عليهم كما يلعبون، نمارس أساليبهم، هم يدركون أننا موجودون، ولكن لا يعلمون ما هي طريقة عملنا، وكلما حاولوا توقعها نباغتهم من جهة أخرى.

المدير ٧

- لقد توصل العلم إلى أهم أساليب التتبع، وهي بصمة الصوت، فلكل صوت بصمة خاصة به، فمثلاً إذا أجريت مكالمة عبر أي وسيلة تتصل بالأقمار الصناعية، كان من اليسير جداً أن يُعرف مكانك في تلك اللحظة، أما إذا انتقلت سريعاً بعدها إلى مكانٍ آخر، وتركت وسيلة اتصالك، سنفقد مكانك، وستظل مجهولاً، ولن نعرف أين تقبع حينها، إلا إذا أجريت اتصالاً آخر، وهذا القصور هو ما نحى أهمية بصمة الصوت جانباً، وقزّم استخدامها.

- ولكن بفضل بصمة الظل، لن يختبئ منا أحد، فبمُجرد أن تجرى اتصالات واحداً سيكون من اليسير جداً معرفة مكانك عن طريقها، دون مجهود يُذكر، وهذا هو الاختراع الذي سيحتاج إلى مئات السنين كي يتوصل العلماء إلى مجرد التفكير فيه لصعوبة إدراكه.

بصمة الظل لن تستطيع أن تعمل منفردة، فهي خطوتان لا ثالث لهما:

الخطوة الأولى:

أن تعلم مكان الشخص المُراد تتبُعه عن طريقة بصمة الصوت، ومن ثم إذا انتقل إلى مكانٍ آخر، ستعلم مكانه عن طريقة الخطوة الثانية.

الخطوة الثانية:

عندما يخبرك القمر الصناعي بمكان الشخص عن طريق بصمة الصوت، تقوم أقمارنا الصناعية بالتقاط صورة له، مُصاحبة ظله معه، وهنا يعمل اختراعي.

ابتلعها حقل ذكرياتها فتركها ألونسو تغوص فيه كسمكة زينة صغيرة، تدغدغ الشعاب المرجانية جسدها، فتسكن الراحة والسكينة قلبها.

عادت تينا من رحلة شرودها الخاطفة، وكأنها ترى فيلماً تسجيلياً لا يراه إلا هي فأردفت:

- أنا عاشقة للزهور، خاصة التي يُستخرج منها العطور ذات الرائحة غير النفاذة، وذات يوم كنت أشاهد بعض الأزهار التي يُستخرج منها عطري المفضل، استوقفتني زهرة لم أتذكر أن عيني قد وقعت على مثلها من قبل، فالتقطت لها صورة عن طريق قمرنا الصناعي الخاص بالشركة للاحتفاظ بها، والبحث عن ماهيتها، ولكن جاءت إحداثيات الصورة كثيرة وكأنه يوجد شخص في الصورة مع الزهرة، مما جعلني ألتقط عدداً من الصور لها.

كدت أصاب بالجنون، فتأوه عقلي من شدة تركيزي على الصورة!!..

وضعت عيني أتأمل الزهرة كثيراً، حتى التقطت عيني لها خيالاً طفيفاً يكاد لا يُرى، لكن دقة القمر الصناعي أثبتت حضوره لعيني بسهولة،

شعرت بأن هناك خطأ ما، فالتقطت عدداً من الصور لزهور أخرى، ثم انتقلت للنباتات ثم الحيوانات.

وهنا وُلد الاختراع الذي سيرفع الشركة لعنان السماء، وسيُثبِّت قدمي على كرسيها طالما مازلت أتنفس.

اكتشفت أن ظل الكائنات الحية، نبات أو حيوان أو إنسان، يحتوي على أنسجة وخلايا متشابكة تشابكاً دقيقاً، لا يمكن أن يراه أحد، إلا مع دقة القمر الصناعي الخاص بنا.

أجريت عدداً من التجارب على الظل، حتى شعرت وكأن بها نبضاً خفيفاً يمكن استشعار حركته، ولكن ببطء شديد، وكأنك تتبع آثار مركب صغير، يطفو على الماء، فيترك خلفه خطاً خفيفاً، منه تدرك أن شيئاً ما سار على الماء في هذا الاتجاه، ولكن في النهاية يمكن تتبعه.

وبدأت أعمل على تلك النتيجة، حتى توصلتُ إلى أنه يمكنك معرفة موقع أي كائن حي على وجه الأرض، مستخدماً بصمة الصوت لتصوير موقع الشخص وظله، ثم تتبع هذا الظل لمعرفة مكانه الحالي وتحركاته، وكأن الشخص انقسم إلى جزأين حيين.

ظهرت ابتسامة انتصار على وجهه بعدما قام بتنفيذ الخطوات التي أخبرته بها تينا، لتظهر أمامه صورة 5 2j.

أمسك هاتفه بلهفة في محاولة للاتصال لإعداد طائرته، للذهاب إلى جي (٢٥)، فقبضت تينا على يديه برفق وقالت له:

- إن الطائرة في انتظارك منذ قدومي إلى هنا.

السفينة ٨

ظل جو يكمل حديثه، والكل آذان مصغية، وأوجه منبهرة من ذلك الشخص الذي يعادي أقوى دول العالم وهو خالي الوفاض، بلا قوة تذكر، ابتلع الصمت ضوضاء السفينة، وسرعان ما ظهرت همهمات خفيفة، ثم توجه الناس إلى حافتها اليمنى، ينظرون إلى أسفلها، تعجب إياد وأصحابه من تصرفهم المباغت، فأحسوا بأن هناك أمراً ما، فذهب يتحرى الموقف عن قرب.

وصل إياد إلى حافة السفينة بصعوبة بالغة من شدة الزحام على حافتها، مما جعلها تميل في اتجاه الزحام، صوب عينيه تجاه مرمى نظر الناس ليجد (لنش) مركباً صغيراً، يحمل شخصين ويبحر تجاههم في سرعة كبيرة.

وصل اللنش للسفينة، وساعد الناس قاطنيه في الصعود على متنها، دون حديث، شرع أحد الغرباء ينظر في وجوه الأشخاص المندهشين الملتفين حولهما، باحثاً بلهفة عن وجه يتوق شوقاً لرؤيته منذ سنوات، حتى بادره أحدهم بالحديث قائلا:

- أهلا جوزيف.

توجه جوزيف بكل أعضائه وحواسه ناحية الصوت، الذي جعل دقات قلبه تزداد اضطراباً، وحين التقت العينان، ألقى جوزيف بنفسه في أحضان صاحب الصوت، ودخل في نوبة عارمة من البكاء.

انفض الجمع وعادت الحياة إلى السفينة مرة أخرى، وسط اندهاش وتساؤلات تبرز بوضوح من أعين الجميع.

أخذه صاحب الصوت وأجلسه في مكان منعزل نسبياً، فتكلم جوزيف والحزن يسيطر على نبراته.

- كيف حالك يا حسام؟

نظر إليه حسام دون أي حديث، ولكن العتاب يراه الأعمى من عينيه البنيتين.

استكمل جوزيف الحديث:

- أعلم أنك تمتلك كامل الحق في كل ما ستفعل، ولكني أعتذر حقاً عما بدر مني، لقد كنت أنانياً لا أفكر إلا في مصلحتي، وأهملت أبي وأمي، بعد سفرك للدراسة، حتى ماتا وحيدين، وقد تجرعت جزائي علقماً مراً، فأهدافي التي وصلت إليها، بعد أن ضحيت بكل شيء كانت سبباً لتعاستي، اعذرني يا حسام، فلا وقت لدينا للعتاب، إنهم قادمون إليك، يريدون أن يقتلوك لا أعلم...

قاطعه حسام بصرامة فقال:

- كيف عرفت أنِّي هنا؟

قال جوزيف:

- سوف أقص عليكَ كل شيء سريعاً.

قال حسام انتظر، فهناك أشخاص مهمين، يجب أن يعلموا ما ستقصه عليّ. رفع حسام صوته وقال:

- إياد، الياسمين، أحمد.

أتي الجميع في سرعة، وتبعهم في تباطؤ رجل الأهواز العجوز، ثم بنت البشير السورية، فقال إياد:

- ماذا تريد يا جو....

قال حسام، بعد ابتسامة صغيرة:

- إنه جوزيف أخي، وأنا اسمي الحقيقي حسام.

طلَّ الفزع من أعين الجميع، بما فيهم جوزيف وماري أيضاً.

وأردف قائلاً:

- جوزيف سوف يسرد عليكم أموراً، أود أن تعلموها جميعاً، وستدركون لم أخبرتكم أن اسمي جو.

لم يبالي حسام بأطنان الاندهاش التي تعتلي وجوههم، وأشار لجوزيف أن ابدأ الحديث.

بدأ جوزيف يحكي باختصار كل ما مر به من طفولته، وحبه للبرمجة وعمله بها، حتى وجد صورة أخيه حسام في "لاب توب" المدير، فاضطر لاختراق جهازه لمعرفة سبب وجود الصورة عليه، ثم اختطافه وحبسه في المركز، واكتشافه ما يحدث فيه من جرائم بشعة، حتى وصل عند استراقه السمع لاجتماعهم، بعد وضعه الشريحة الفارغة، التي سوف توضع في رأسه عند إجراء العملية له. سكت هنيهة وسط ذهول الجميع، والأسئلة التي تكاد تخرج من أفواههم، ولكن حبسوها كي يعلموا المزيد. ثم أردف:

- بعدما رأيت الملف المكتوب عليه "سري للغاية"، جالت في خاطري فكرة، في قمة الغرابة، لم أقم بحساب مقدار المخاطرة فيها، ولكني نفذتها بسرعة، فلا وقت لدي حينها، قمت بتحميل الملف السري، وكل الملفات التي تحوي العمليات في رحمها، على شريحتي، ثم وضعت الشريحة في مكانها كما كانت، فبعد العملية، سيضم جسدي أكبر دليل، لفضح المركز، وكل شخص أسهم في أعماله.

ظهرت النتائج بعد العملية طبيعية إلى حد كبير، ولكن يجب أن يتم الاختبار لكل الناجين كما أخبرتكم.

أحضرنا مستر هنري إلى اجتماع مثل الذي استرقت السمع إليه من قبل، ورأيت الأوجه جميعاً: مسيو كال مديري، ومديرته، وشخصاً يدعى ألبرت، يبدو أنه مالك المركز، وآخر يسمى ألونسو.

أتى إلينا مستر هنري، وأجرى علينا الاختبار، وأعطاني سيجاراً، طلب مني إشعاله، فأشعلته بهدوء، ثم قال لي:

- اطْفِئه في فخذك الأيمن.

قمت بإنزال بنطالي، وألصقت السيجار مشتعلاً في لحمي، فتصبب العرق مني، وحاولت بشتى الطرق ألا أبدي حتى سنتيمتراً واحد من الشعور بالألم، كي لا يتم كشف أمري، فينتهي أمري.

بعد أن أطفأت السيجار، طلب مني إشعالها مرة أخرى، ووضعها في فخذي الأيسر، ففعلت، ولكني كنت على وشك الصراخ، فتحاملت على نفسي، كي أنقذ أخي حسام، فهو كل ما تبقي لي.

نظر الجميع إلى حسام، فوجدوا نظراته جامدة، لم يتأثر بشيء مما سبق.

فتابع جوزيف الحديث:

ثم أمر مسيو كال كلاً منهم، بأن يفعل مثل ما فعلت، بل وأبشع، فنفذوه بوجوم دون وعي أو إدراك، شعرت لحظتها بأني أكثرهم حظاً لسهولة اختباري.

ولكن فاجأني صوته الغليظ، مرة أخرى حين أعطاني سكينا وأمرني أن أغرسها في بطني.

يبدو وأنه كان يكرهني بشدة، أو أنه هناك احتمالاً صغيراً في أنه يشك بي؟ فأراد أن يجعلني أنهي حياتي بيدي.

يبدو أني تصرفت بحمق.

قبضت على السكين بسرعة، كي أقطع شكه في، رفعت ملابسي، فأصبح نصل السكين اللامع في مواجهة مباشرة مع بطني، ثم وضعت السكين عليها طولياً، حتى يكون الضرر أقل، وما إن لامس نصلها جلد بطني، حتى وجدت مسيو كال، قد ركل يدي بقدمه بقوة، فغُرس السكين كاملاً في بطني، وسقطت فوق الأرض في الحال مغشياً علي.

ثم قال لهم:

- لقد كنت أكره ذلك الشخص، فقد كان زكياً فوق العادة، ثم أردف:

- ألقوه في غرفة العمليات، فإن نجا فسيقوم بأول عملية قادمة.

ظهرت علامات الفزع من جديد على أوجه المستمعين، وذهبت الياسمين إلى حافة السفينة، لتفرغ ما بجوفها مرة أخرى، أما إياد وحسام وأحمد ورجل الأهواز، ما أفزعهم حقاً ليست الدماء، فكثير ما أريقت أمام

أعينهم، ولكن ما أرعبهم حقاً، هو كيف لهؤلاء الأشخاص، أن يفعلوا ذلك كله، دون أن يتأثروا بشيء؟ وكيف نزعوا إنسانيتهم عنهم.

تساءل حسام:

- كيف عرفت مكاني؟

قال جوزيف حين أنتهي ستعلم كل شيء ثم أكمل:

- بعد فترة ليست طويلة شفيت بمعجزة إلهية، وقاموا بإعدادي أنا وفتاة أخرى تسمى (جيني)، كي نقوم بتفجير مبنى مهم في لندن، وبما أنها كانت الأمهر والأسرع، فقد ولوها القيادة.

خرجنا من المركز بسيارة سوداء، وفي مكان متفق عليه، أنزلونا وتركونا بمفردنا، كل التعليمات كانت مسجلة على الشريحة في رؤوسنا، وبما أني قمت بتغيير شريحتي، فلا أعلم أي تفاصيل، فبدأت أسير خلفها حتى لاحظوا تعثر خطواتي كثيراً عكس ماري، ثابتة الخطى، وهذا يجب ألا يحدث في وجود الشريحة. وصلنا إلى المكان المراد تفجيره، وعندما همَّت بالدخول، صرخت بها بأعلى صوت، وأخبرت موظفي الأمن، أنها تمتلك متفجرات، وسوف تفجر المكان بمن فيه أحياء.نظروا إلينا في ذهول، وعدم تصديق، ولكن لم تطل نظراتهم لي، حيث رأيت جيني تحرك يديها ناحية قدمها اليمنى المعلق بها زر التفجير، فقمت بالجري والابتعاد عن مكان

الانفجار، ودوى صوت المفرقعات جلياً، يسمعه من كان ينأى كيلو متراً عن المكان، وتطاير جسدي بعيداً، وسقطت فوق الأرض بقوة، وجُرِحَتْ رأسي، وسالت منها الدماء.

وببطء شديد حملتني قدماي، وقمت محاولاً الابتعاد عن مكان الانفجار قدر المستطاع، ابتعدت ولكن ليس كثيراً، شعرت بأن هناك سائلاً يجري في عروقي، نظرت خلفي بتثاقل فوجدت سيارة المركز تسير مسرعة في عكس اتجاهي، وهويت إلى الأرض في الحال.

بعنف قال حسام:

- أنت لم تجبني حتى الآن.. كيف عثرت عليّ؟

قال جوزيف:

- بعد أن أخرجت الشريحة من رأسي، خرجت من الشقة وماري معي، توجهنا مباشرة إلى شقتي، وكما توقعت، كان عليها بعض الحرس، تركت ماري، ودخلت المبنى المجاور، وصعدت أعلاه، وقفزت إلى المبنى الذي توجد به شقتي، وحين وصلت للباب، أخرجت المفتاح الاحتياطي من فتحة صغيرة بجوار الباب، فأنت تعلم أني أسهو كثيراً، دلفت إلى الشقة بهدوء، وتوجهت إلى مكان "اللاب توب" الخاص به، فلم أجده يبدو أن مسيو كال قد أخذه بعد اختطافي.

تذكرت هاتفي، شرعت في البحث عنه في كل مكان، فوجدته وقد فرغت بطاريته، وضعت الشريحة به بعد أن أوصلتها بوصلة صغيرة، كي يتمكن الهاتف من قراءتها، وبالفعل تم ما أردت.

تمكنت من فك شفرات الملفات السرية، ورأيت ما لا يمكن رؤيته من بشاعة وكره، امتلأت به قلوب هؤلاء البشر غير البشريين، ووجدت ملفاً اسمه "برنامج بصمة الظل"، لم أرى مثله من قبل، حاولت الدخول إليه، فطلب مني الدخول إلى شبكة الإنترنت، فدخلت عليها، ثم مكَّنني البرنامج من معرفة مكانك تحديداً.

سعيد

أنهى جوزيف كلامه، كما أنهى كل واحدٍ منهم قصته، والتي تمثل له عناءً شاقاً بكل ما تحويه من آلام وأوجاع وذكريات جميلة، يتمني أن تعود- ولو لحظة واحدة- حقيقة.

لازم الجميع هدوء وسكينة، وكأنهم ألقوا أحمال دهر كامل من على عاتق ذاكرة، كادت أن تُصاب بالجنون من فرط ثقل حمولتها، واعتقلوا أنفسهم داخل ذكرياتهم، لترتسم على وجوههم ابتسامات ثم ضحكات، أو تسقط منهم دمعات قليلة علَّها تُطفئ ناراً من الحياة تأججت، تنتظر خبراً سعيداً يطفئها.

- لا بد أن تستمعوا لي جيداً، ومع انتهائي ستعلمون كل شيء، من فضلكم لا أحد يقاطعني.

جاءهم صوت ذلك الشاب مشوه الوجه، ولكن صرامته ألجمت ألسنتهم عن الكلام، وأجسادهم عن الحركة.

- بداية أن أعرف قصة كل منكم جيداً، ولا بد أن تعلموا قصتي وما حل بوجهي المشوه هذا.

أنا سعيد وهو اسمي، وليس صفة، قد أدركت معناها يوماً، حياتي كانت روتينية كأي شاب يريد أن يدخل الجامعة ويتخرج فيها سريعاً، ويرى الدنيا وهي فاتحة ذراعيها، تستقبله استقبال الفاتحين، فتُنعم عليه بالعمل الذي يريده، والزوجة التي ستفرش حياته زهوراً، والأبناء الذين يحيلون تعب الحياة جنة.

بالفعل تخرجت في الجامعة التي تمنيت أن أدخلها، والتحقت العمل الذي حلمت به كل يوم، ولكني لم أر السعادة يوماً.

وتسرب لحياتي الملل، القادر على قتل كل لذة، ووأد كل شهوة، حتى كدت أن أختنق، فمهنتي التي كنت أحلم بها نائماً ومستيقظاً، أضحت حملاً ثقيلاً على كاهلي، ولا أعلم لذلك سبباً.

ذات يوم أتتني رسالة لتخبرني بوجود مجموعة من الأوراق في مكان ما تحمل أسراراً مهمة، فُتح باب الفضول على مصراعيه، وذهبت وأحضرت الأوراق، وعكفت على قراءتها، وشعرت أنها قادرة على قتل ذلك الملل الذي غرقت فيه. ذهبت بي الأوراق إلى عالم لم أكن أعلم بوجوده، إلا في السينما، عالم لا توجد به محظورات، فكل شيء مُباح ومُتاح، اللذة تحكمه، والشهوة تُسيِّرُه، والمال هو المادة الخام لإشعال الرغبات، مجتمع للحيوانات أقرب منه للبشر.

كل ما يشغل الفكر والبال هو الشهوة بأنواعها المُختلفة، سواء مالية أو سلطوية أو جسدية، الجميع يسعى إلى سد وإشباع أكبر قدر من شهوته، بأي وسيلة مثل الحيوانات، التي تجامع بعضها في الشوارع، وأمام الأعين دون مواراة، ولكنها تمتلك العذر الكافي، وهو أنها لا تملك عقلاً، أما ذلك المجتمع فلا عذر له.

تحدث إليَّ ذلك الشخص في الأوراق قائلاً:

– تعرفت على الأستاذ في إحدى السهرات، وعملت على حمايته، ونلت قدراً عالياً لديه، ومكانة مرموقة في حياته، فأصبحت مسئوله الأول وذراعه اليمنى، ولكن هناك قواعد تسري في عروق ذلك المُجتمع تتسم بالخسة والوضاعة، منها على سبيل المثال لا الحصر، أن الصغير الذي لا حمى له، يُؤكل ممن هو أكبر منه، لتتسع الدائرة، وتصل لأكبر رأس في مجتمعهم.

فحُبس الأستاذ الذي عملت معه، بعد أن أدخلني كهف مجتمعهم، ثم تلقفني أستاذ آخر أعلى منه في الرتبة الفاسدة، وأكثر إبداعاً في خلق الفرص، لتزويد ثرواته بطرق غير مشروعة.

كل منهم يمتلك طريقه خاصة في العمل، ثم ذهب الأستاذ الجديد، وجاء من هو أحدث منه، وأعلى مرتبة، حتى وصلت إلى أكبر رأس في ذلك المجتمع.

وعندما أنهيت الرسائل جميعاً، قمت بنشرها في الصحيفة التي أعمل بها.

آسف قد نسيت أن أُخبركم أن عملي الذي تمنيته طيلة حياتي منذ صغري إلى رشدي، مصطحباً معه أجمل الأحلام والأمنيات، والذي كان سبباً في تعاستي، وأيضاً تدمير حياتي هو الصحافة، فهكذا تأتي لنا الآلام ونُصاب بالأوجاع والآلام من تلك الأشياء التي اعتقدنا وآمنا أنها سبب سعادتنا وفرحتنا، فتعلقت بها قلوبنا أشد التعلق، ولكن العاقل منا يدرك جيداً أنها ابتلاءات من الله عز وجل، فهو يختبرنا بتلك الأشياء، التي نحبها، أو التي تتمسك بها الأفئدة، وتشتهيها الأنفس، وإذا تحلينا بالصبر على الألم، وبالأمل على اليأس، والرضا بمقدور الله، كان لنا المخرج من ذلك الباب الذي تيقنا من غلقه.

قاطعه إياد بإشارة من يده قائلاً:

- ما هذه التشوهات التي أصابت وجهك؟؟ ومِنْ الواضح أنها تسربت إلى جسدك؟

ضحك سعيد ضحكة عالية، ثم قال:

- اصبر وسوف تعلم إجابة كل سؤال يدور في خلدك.

استلم سعيد الحديث مرة أخرى:

– بعدما نشرت الرسائل المجهولة الهوية، وأحدثت ضجة كبيرة، كانت سبباً، لخلع نظام حكم بأكمله، ولكن قبل أن أشهد كل هذا، كنت قد خُطفت في سيارة، ثم سُجنت في مكان أشبه ما يكون بالقبر الصغير، يكبر جسدي بسنتيمترات قليلة، ولم أكن أبداً وحيداً فصرخات من يتعذبوا بجواري ما زالت تسري إلى أذني، كلما حامت ذكراها بعقلي وكأنها الآن، حتى نالني العذاب النفسي أكثر من البدني.

– في البداية كنت أسمع الصرخات فقط، فينتابني الخوف، ويتملكني الفزع في انتظار دوري، في التعذيب، وهذا الانتظار قتلني ألف مرة قبل أن أعذب، ثم حان دوري وعذبت بأشنع وأقبح أساليب التعذيب ووسائله، حتى جاء معذبي، وتحدث معي، أتدرون من هو معذبي؟ وماذا قال لي؟

دون انتظار إجابة من أحدٍ، استكمل سعيد، والدمع يفيض من عينيه، وابتسامة ألم رُسِمَتْ على شفتيه فقال:

– إن معذبي هو صاحب الرسائل.

تسمر الجميع وتَصَنَّمُوا كصنمي إيساف ونائلة، والمشركين يطوفون حولهما في صحن الكعبة.

– هذا ما حدث، ولكن ما أخبرني إياه كان مثل نيزك هرب من الفضاء البعيد، ليهبط فجأة على نملة صغيرة ليفجر جسدها الضئيل إلى أشلاء أصغر من الذرة.

أول ما قاله لي:

– "أشكرك على مجهودك الرائع، فو الله بدونك ما كنت أتمكن من أن أصل إلى ما وصلت إليه، فشكراً جزيلاً.

ودون أن أسأل أجابني على كل ما جال في عقلي قائلاً:

– جعلتك تفضح هؤلاء الأساتذة، كي أتمكن من الجلوس على مقاعدهم، وهو ما ينتظرني بالفعل، فكل أستاذ يوجد أكبر منه، لتتسع الدائرة، وتصل إلى بلادٍ أخرى، يحكم فيها أستاذ، ليس من وطننا، ولكنه يتحكم فيه بكل سهولة، عندما فعلت ما فعلت، وأزحت ممثليهم، كنت الأجدر بالحصول على أماكنهم، أنا ومن معي.

أوقف تعذيبي، لكنه لم ينه حبسي، فقبعت في تلك المقبرة سنيناً، حتى شِبْتُ، وأنا مازلت في بداية عقدي الرابع.

تسمر الجميع، ودب الخوف في أوصالهم ووجوههم المُعبئة بآلاف الأسئلة، ولكن بدد كل ذلك ظهور طائرة من بعيد، خطفت أنظارهم، وأنظار قاطني السفينة جميعاً، واعتصرت قلوبهم.

في سرعة أكلت الطائرة المسافة بينها وبين السفينة، وأصبحت تحلق فوق الرؤوس تماماً، تدَلَّت حبال سميكة، نزلت عليها مجموعة من الأشخاص، ملثمي الوجوه، لا يظهر منها سوى نظراتهم الغليظة كأجسادهم، مسلحين، والسواد يكسوهم من أعلى لأسفل.

دبت أقدامهم على سطح السفينة، فنشرت الفزع معها في قلوب المُشردين، ملأت الضوضاء أرجاء السفينة، ثم هدأ الوضع بعد انتشار المسلحين في كل أركانها.

دقائق وهبط سلم من الطائرة، وصاحبه رجلٌ يخفي عينيه بنظارة سوداء، وملابس فخمة، تزين جسده، لا يعلم أحدٌ عنه شيئاً، سوى سعيد الذي طأطأ رأسه، ونكسها لأسفل، لعلمه بهؤلاء المجرمين، وأفعالهم.

صفق تصفيقة عالية، طالت مدتها وسط دهشة الجميع ثم قال:

- أحسنت يا سعيد، فقد أديت دورك للمرة الثانية على أكمل وجه، فشعر سعيد بدوار يقتحم رأسه لم يتحمله لحظة، فوهنت قدماه بسرعة، فسقط على سطح السفينة، نظر إلى الأستاذ الذي عذبه، وهو لا يفهم شيئاً مما يحدث، حاول الاستيعاب لكنه فشل.

قال الأستاذ:

- لا تشق على نفسك، فأنت لم تكن أنت، فعندما فقدت وعيك، وكدت أن تفقد حياتك في محبسك، شعرت بأنني قد أستغلك ثانية، كنت لا أعلم الوقت، لكني أدركت أنه سيحين استخدامك مرة أخرى، فشكراً لك.

أجريت لك عملية جراحية بسيطة في مؤخرة رأسك، ووضعت شيئاً صغيراً، مكَّنني من التحكم في كل أفعالك، وتفكيرك، وذكرياتك، حتى مشاعرك، كحزنك، وفرحك، ورضاك، وسخطك، فأبث لك ذكريات وهمية، فتشعر بما أريده، كما أنك لا تصدر فعلاً إلا بإرادتي.

كدت أنسى إخبارك بذلك المايكروفون الصغير، الموضوع تحت جلدك، فكل كلمة تنفوه بها لأحد بجوارك في تلك السفينة، كانت تصلني مباشرة.

حاول سعيد النهوض، لكنه فشل مرة أخرى، لكن البورمي، أسنده وأجلسه معتدلاً، وحاول الكلام، فأشار المدير له، أن أسكت، وقال:

- الجميع قد تكلم، وقد حان وقت الاستماع.

أشار إليهم بأصابعه، ثم أردف قائلاً:

- بالفعل كل قصصكم مأساوية، وتدعو الدموع للهطول بغزارة، فأنت يا إياد اغتصبوا وطنك، وقتلوا أهلك، ومن بقي لك في الحياة، لتعيش وحيداً طريداً على تلك السفينة، لعلك تنجو من حياة التشرد والتنقل بين مخيمات اللاجئين.

- أما أنتِ يا أليس..

فقالت في عنف:

- اسمي الياسمين.

ضحك ضحكة مُستفزة ثم قال:

- مهما كان الاسم، فأنت الفتاة الصغيرة، التي هجم الهمج على قريتها، وقتلوا والدها، واغتصبوا أمها، ثم فرقوا بينها وبين أختها كايل، آسف أقصد كريمة، ثم قاموا باستغلال الظروف ونَصَّروكِ ،وأنتِ الفتاة التي تربيتي في بيت مسلم، وعندما رأيت الراهب يعطي المال لقاتل أبيكِ في إحدى زوايا حديقة الكنيسة قتلتيه وفررتِ، أحمق ذلك الراهب، فقد نسي أن ذاكرة الأطفال أقوى من ذاكرة أحدث حاسب آلي متطور.

- أما أنت أيها البورمي، فلن يسأل عنك وعن قبيلتك أحدٌ، حيث إننا جعلنا كل بلد من بلادكم تنشغل بمشكلاتها وهمومها، كي ينغمسوا فيها وفقط، وهذا ما فعلناه كي يسقط أخوك محمد البشير في أحد شراكنا ومصائدنا في سوريا أيضاً.

– أتدرون، ليس كل ما يحدث لكم هو من تخطيطنا، ولكن هناك أحداث كثيرة في حياتكم، قد تبدوا غير ذات أهمية بالنسبة لكم، لكننا نقوم باستغلالها لمصلحتنا، وخدمة مشروعنا العالمي، وهذا هو ما حدث في ربيعكم العربي.

ضحك كثيراً، ثم رفع نبرة صوته، وبحدة قال:

– نحن نغريكم بالقروض التي لن تستطيعوا سدادها، فيصير اقتصاد دولكم كلها في قبضتنا، نأمركم ببعض الأشياء، نطلق عليها إصلاحات، وهي في الأساس تساعدنا في السيطرة على شعوبكم وحكوماتكم، فنضيِّق عليكم الخناق بها، ونجعلكم وشعوبكم تنشغلون بصغار الأمور، مثل لقمة العيش، والزواج، والتعليم الفاشل، فلا يكون لديكم وقت كافٍ، كي تتعلموا وتقرءوا، وتفكروا في أي شيء مما يحدث حولكم، ولا يكون لديكم وقت أيضاً لتعلم الأمور المهمة، التي قد تغير مستقبلكم.

– أتدرون أيضاً، لدينا مجموعات ومؤسسات كاملة، كل هدفها إشغالكم بكل الطرق وإلهاؤكم عما يدور خارج بلادكم، أحياناً نغريكم بأحدث الموضات العالمية في كل المجالات: الملابس، والمسابقات ذات الجوائز الوهمية، والبرامج ذات الأسماء الرنانة، والشخصيات اللامعة.

– نغريكم بالعلوم التي لا طائل منها، ولا نفع لكم بها، ولكن هدفها الحقيقي هو إشعاركم بمدى التقزُّم الذي وصلتم إليه، ومستوى التخلف الذي يحيط بكم، كما نصدِّر لكم من المجالات ما ثَبُتَ فشله لدينا، كل هذا مجاناً، فتنخدعون به وتلهثون وراءه، وكأنه معجزة من السماء. كثيرة هي مغرياتنا، ولن تستطيعوا الفكاك منها، وهذا ما حاولت عائلة غازي القيام به، وكادوا ينجحون.

قال حسام في حزم:

– بل نجحنا، فإننا لو لم ننجح، فإن كل ما بنيته أنت في سنين، لم يكن ليتوقف على إيجادك لي، ولما كنت تركت مكتبك العظيم، وتحملت عناء حضورك إلى هنا، إننا لو لم ننجح، لم تكن لتستعين بأعظم شركة اتصالات، واستخدام أحدث الوسائل على وجه الأرض، لمعرفة مكاني لتقضي على مشروعنا، ولن تستطيع فعل ذلك أبداً، فجيل العودة قد انتشر، ونشر الفكرة في كل العقول، والفكرة لا تموت، حتى وإن ماتت الأشخاص.

قال بنبرة المهزوم:

- بالفعل يا حسام، أنتم نجحتم نجاحاً باهراً، فإن أسلوبكم، وطريقة تعاملكم مع الأمور، كانت بحنكة شديدة، وذكاء صارخ، وكما لا يفل الحديد إلا الحديد، لم تكونوا لتنجحوا إلا باستخدامكم نفس طريقتنا، فرِّق تسد، ففرقتم بين أبناء أوطاننا، وشرعتم تهددون وحدة بلادنا، بل وصلتم لأعلى المناصب.

- كما أن أسلوبكم في التخفي- حقا قد أرهقتمونا- كان باهراً، حتى قمت باستخدام اسم أخيك جوزيف، والمعروف أنه يعمل لدى إحدى شركاتنا، فلن يشك بك أحد، فاستطعت أن تعبر كثيراً من المشكلات التي واجهتك، ناهيك عن الأسماء المستعارة الأخرى.

نظر الجميع إلى حسام، منبهرين بشهادة أعدائه بفطنته، ولكن نظرة جوزيف كانت مستفهمة، فقال لحسام:

- هذا يعني أنك كنت تعلم مكاني، ولم تحادثني ولو مرة واحدة؟

قال حسام:

- لو كنت حاولت الاتصال بك لعرضتك، وعرضت مستقبلك، الذي كرست له كل حياتك للخطر، فبمجرد أن رأيت صورتي على "لاب توب" تدمرت حياتك، فما بالك لو سمعت صوتي أو رأيتني.

طأطأ جوزيف رأسه للأرض، مؤكداً على كلام أخيه.

فتحدث ألونسو قائلاً:

- بالفعل يا جوزيف، أنت كنت مراقباً طوال الوقت، ومنذ سنين ولَّت، فكنا نترقب أي محاولة من حسام للتواصل معك، ولكنه كان ذكياً بما يكفي، فلم يفعل ذلك، ولكن بغبائك أنت قمت بحشر نفسك، بطريقة لم نكن نتوقعها، فاضطررنا لأخذك للمركز.

- لكنك لم تكن أقل ذكاءً من أخيك، فلو كنتما على وفاق وتعاونتما معاً، لكان لكما شأنٌ آخر حقاً، ولكنك تربيت في شركاتنا، وتحت أعيننا، فأمنا مكرك، وتيقنا أنك مختلف تماماً عن أخيك وفكره.

ثم أضاف بخبث:

- بل استخدمناك في تتبعه وإحضاره لنا، فقمنا بسجنه، ولكنه هرب منا كالعادة.

توجهت نظرات الجميع المنزعجة باندهاش إلى حسام، وتذكروا ما قاله حين أخبرهم أن أقرب الأقربين هو من قام بتسليمه، ولكن نظرات جوزيف كانت متسائلة:

- هل ما قاله هذا صحيح؟ هل قمت بسجن أخي؟

سكت حسام سكوتاً أدرك منه الجميع صدق ما قيل.

فقطع ألونسو عليهم نظراتهم الحزينة والمستفهمة، ووجه كلامه لجوزيف فقال:

– ولكن ظهر جزء كبير من ذكائك حين قمت بسرقة بصمة مستر هنري، ودخلت غرفة العمليات دون أن يشعر بك أحد، ورأيت كل أسرارنا بعينيك، ولم يشعر بك أحد، والأدهى من ذلك أنك بدَّلت شريحتك بأخرى فارغة، بل وحمَّلت عليها جميع ملفاتنا المهمة.

حاول جوزيف مقاطعته، لكنه أوقفه بصرامة وأكمل:

– أما براعتك الحقيقة فتجلت كما يتجلي القمر في يوم شديد الظلمة، وسماء صارخة السواد، حين أوهمتنا جميعاً أن عمليتك قد نجحت تماماً، وقمت بإطفاء السيجار في جلدك، ووضع السكين على بطنك، فقام هنري بغرسها بشدة في بطنك.

– حقاً أهنئ عائلة غازي على وجود مثلكما في أرحام نسائها، ولكن النهاية كما ترون، سكت لحظة يتمعن كلماته التالية، ثم قال:

– أتدرون؟؟؟

نظر الجميع في تأهب يشويه غضب حصان جامح، لو انطلق على جبل لفلقه نصفين.

فأردف قائلاً:

– لقد حاول أجدادنا مراراً السيطرة على بلادكم بقوة السلاح، فقمنا باحتلالكم، وامتلكنا زمام الأمور، ولكنكم كنتم تتوحدون وتقاتلون بضراوة، ونالنا من الخسائر ما ليس بقليل، حينها فكرنا كثيراً، حتى توصلنا إلى أن وقت السيطرة عليكم بالحرب، قد انتهى وحان وقت التفكير.

مرة أخرى توقف هنيهة ثم قال:

– إن الأداة الأكثر قوة، التي يحوزها الإنسان في حياته وفي جسده هي عقله، وكالحيوانات يتم ربطها من عنقها، كي نسيطر عليها، نحن ربطناكم من عقولكم، كي نسيطر عليكم بالإجهاد، والقلق، وبضعف التقدير الذاتي، والجهل، والاحتياج، والتشاؤم، والغضب، والكره فيما بينكم، وعداء بعضكم البعض، والتمرد، فقمنا بزرع تلك الأمراض بعقولكم، والنتيجة ما ترون الآن بأعينكم، جعلناكم تكرهون بعضكم، وتعادون بعضكم، ثم تقتلون أنفسكم، بأيديكم وتدمرون بلادكم بأسلحتنا، التي تدفعون لنا مقابلها ملايين المليارات، ثم تلجئون إلينا كي نحل مشكلاتكم.

– لقد أتى تخطيطنا بثماره أسرع مما تخيل المتفائلون منا، كما أنه دون خسائر تذكر، فأضحينا نحتل بلادكم ونحكمها عن بعد، مثل الآلات التي تتحكم بها، وأنت جالس في مكانك، دون حركة، عن طريق جهاز صغير يسمى (ريموت)، وبضغطة واحدة على زر صغير.

أدار ألونسو ظهره لهم، ووضع قدمه اليُمنى على السلم، صاعداً إلى الطائرة، تاركاً خلفه القوات تقوم بمهامها، ولكن ما أدهش جوزيف، أنه وجد ماري تسير خلف ألونسو، وهو يضحك ضحكات عالية، مستشفاً نظرات جوزيف، لما يحدث أمام عينيه، فقال ألونسو دون أن ينظر إليه:

– بعد هروبك من موقع التفجير، لم نرد قتلك، لأننا نريد أن نصل إلى الشريحة لنعلم ماذا سرقت؟؟ وأين وضعتها؟، فقمنا بحقنك بمخدر، ولم نستطع إحضارك معنا، حيث انتشر الأمن في لحظات وأغرق المكان بأسلحته.

– اكتفينا بمعرفة مكانك، ولكن المفاجأة أنك فقدت الذاكرة، نتيجة ارتطامك بقوة بالأرض، ثم قمنا بوضع ماري في طريقك، وأحضرنا لك دفترك الذي كتبته بخط يدي هذه، كما فعلت مع سعيد من قبل.

ضحك بهستيرية، مشيداً بذكائه، ثم سكت هنيهة، يراقب الغضب على وجوه المستمعين، وشرع في الضحك مرة أخرى، مما زاد من غضبهم، وأردف قائلاً:

– أتعلم يا جوزيف، لقد تنبأت بما قمت به، وكأنني أشاهدك وأنت تفعله، كتبت ما في الدفتر، ووضعت به كثيراً من الحقائق التي حدثت بالفعل، بالإضافة إلى بعض من تأليفي، كي أساعدك على استعادة ذاكرتك، فتتذكر كل شيء، وتصل للشريحة وما عليها، ومن ثَم نحصل عليها نحن منك، أتعلم.. لقد كنت مستمتعاً وأنا أخط كل حرف في الدفتر، فقد كانت الكتابة في بداية شبابي حلماً كبيراً، برعت فيه، وتمنيت تحقيقه، ولكنك تدرك أنه ليس كل شيء تريده يتحقق، فغالباً يحدث عكس الأشياء التي تحبها.

– فلما تذكرت كل شيء، وأخرجت الشريحة من رأسك، وأنت غارق في دمائك، أتت إلينا ماري وقمنا بتبديل الشريحة بأخرى فارغة، كي لا تشك بها، وتركنا ماري معك، كي نقوم بإبلاغ الشرطة، وتقبض عليك وعلى الممرضة الهاربة، وننهي كل شيء.

دخل ألونسو في نوبات ضحك هستيرية، ولكنه توقف فجأة وتساءل:

– كيف أتيـ.....

لم يكمل السؤال بسبب ضحكات جوزيف المرتفعة جداً، بينما تقوم ماري بالعودة ناحية جوزيف.

ظهر الغضب على وجه ألونسو، واحمر بشدة، وزادت بشرته البيضاء من درجة احمراره.

قال جوزيف بثبات:

- الآن انتهى دورك، وحان دوري في الحديث.

التقط جوزيف أنفاسه بحرفية، كي يبث القلق داخل ألونسو فقال:

- كل ما فعلته ماري معي جعلني أضعها في أكبر موقع شك، قبل أن أنهي قراءة الدفتر ساعدني القدر، وتمكنت من استعادة ذاكرتي بنسبة كبيرة، فكان ولا بد من القيام باختبار لها، وجازفت وقمت بإخراج الشريحة من رأسي، ثم ألقيت نفسي على الأرض، وكأني قد أغشي عليَّ، فشعرت بماري، وهي تبحث عن الشريحة في بحر دمائي، وحين وجدتْها، قبضتْ عليها وهرولت خارج المنزل.

- عندما عادت ادعت أنها أحضرت بعض العصائر، كي تعوضني عن دمائي، التي سالت، وأعطتني شريحة أخرى، ولكن مختلفة عما أخرجتها، حينها لم يكن لدي شك أنكم تتحكمون فيها، وحين اطمأننتم على الشريحة قمتم بإبلاغ الشرطة، ولحسن حظي أنها تأخرت.

- ما قلته لك الآن هو السيناريو المعروف لديكم، ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً.

دخل جوزيف في نوبة من الضحك الهستيري، مما أزعج ألونسو كثيراً، فأشعل الغضب بداخله فطفا الاحمرار على وجنتيه مجدداً وتساءل:

- ما الذي حدث أخبرني؟

قال جوزيف باستفزاز:

- سأخبرك بكل شيء فلا تتعجل يا هذا.

سكت هنيهة، ثم استكمل الحديث، وكانت الجدية تظهر في كل ملامح جوزيف قائلاً:

- بعدما استعدت وعيي، أدركت أنكم تتحكمون في ماري، خاصة عندما تعمدت عمل القهوة، فاقتربت من مؤخرة رأسها، فوجدت مكان الشريحة، ولكن شعرها كان يخبئه قبل ذلك، وحين تيقنت منه، قمت بضربها على رأسها، ففقدت الوعي وقمت بإحضار سكين صغير، وأخرجت الشريحة من رأسها فعادت ذاكرتها.

- قمت بشرح الأمر كله لها، وبإرهاق أخبرتني أنكم أعطيتموها شريحة فارغة، لتستبدلها بالشريحة الموجودة برأسي، وقمنا بإعداد تمثيلية صغيرة عليكم، أخرجت لي الشريحة من رأسي، وحمَّلت الملفات الموجودة عليها على الشريحة الفارغة بواسطة هاتفها الذي أعطيتموه لها، كي تتواصل معكم.

– وكما توقعت، كنتم تريدون التضحية بي وبماري وتقدمونا للشرطة، كي يتم حبسنا مدى الحياة فأنا المجرم الهارب، وهي الممرضة الخائنة، ثم يتم إغلاق القضية للأبد، وتنعمون أنتم بالحياة، وتبحثون عن هدف آخر تدمرونه.

سكت متعمداً، ناظراً في وجه ألونسو الغاضب، ووجوه زملاء أخيه، واستطرد قائلاً:

– حين عادتْ، وتأكد من عدم مراقبتكم لها، وقبل أن تأتي الشرطة، هربنا من الباب الخارجي، وذهبت إلى شقتي، بعد أن هربت من الأمن الواقف أسفل شقتي.

– صعدت ماري بعدي بنصف ساعة، وكانت مرهقة، فتركتها تغوص في النوم كي ترتاح قليلاً، فوراءنا عمل طويل.

– أتدري يا ألونسو، لقد خدعتكم أكبر خدعة، واتخذت كثيراً من الاحتياطات، منها أني حمَّلت الملفات على شريحتين: واحدة وضعتموها بأنفسكم في رأسي، وهي قابعة في معاملكم الآن، والثانية أنتم أحضرتموها لي مع ماري.

ظهر الانبهار على أوجه الجميع، مما أزعج ألونسو، الذي تحوَّل جلده للأحمر القاني، من فرط الغضب المسيطر عليه.

بضحكات متقطعة أكمل جوزيف:

- أما الطامة الكبرى لكم، أن كل ما حدث على متن هذه السفينة العفنة، يشاهده العالم أجمع بالصوت والصورة، عن طريق هذه الكاميرا الصغيرة.

ثم وضع يده اليمنى على كتفه الأيسر، وقربها من وجه ألونسو، كي يتسنى له رؤيتها عن قرب.

لم يعرف ألونسو ماذا يفعل حينها، فتسلقت عيناه الموجات الهوائية، حتى وصلت للطائرة بأنفاس متقطعة، فوجد فوهة بندقية تنظر إليه في حزم قاتل، فنظر نظرات استعطاف في عين المرأة التي كان يدللها منذ ساعات، لترد عليه بطلقة اخترقت قفصه الصدري، واستقرت في قلبه، فتباطأت أنفاسه، رويداً رويداً، حتى توقف قلبه عن النبض.

تمت بحمد الله....

□

حروف من نور

١٠ برج الاشراف شارع الهداية المريوطية فيصل الجيزة

" جمهورية مصر العربية"

الايميل yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)